مرآة التاريخ

أدب الـتـاريـــخ

الطبـعـة الأولـــــى
2020م- 1442هـ

ديـــــوان العـــرب
للنشر و التـوزيـــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: مرآة التاريخ

اســـم المـؤلف: د. محمد فتحي عبد العال

التصنيف الأدبي: أدب التاريخ

رقـم الإيـــــداع: 16328 / 2020

الترقيـــم الدولي: 0 - 40 - 6830 - 977 – 978

تـصميـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع ـ مصر ـ بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

مرآة التاريخ

أدب التاريخ

د. محمد فتحي عبدالعال

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع
ديوان العرب
حقق حلمك

إهداء

إلى خير البشرية

إلى الرحمة المهداة

إلى من جعل من القيـم والأخـلاق هوية للإنسان

إلى نبي الإنسانية المصطفى صلى الله عليه وسلم

د. محمد فتحي عبدالعال

****

مقدمة

يبقى التاريخ مرآة للإنسان فعلى صفحته يقرأ ماضيه ويترجم حاضره ومن عبره يستلهم مستقبله.

ولأن الإنسان كائن أخلاقي يحتضن في أعماقه قوة خفية هي الضمير تراقب دوافعه وتكبح غرائزه فلا غرو أن يكون الفكر الأخلاقي هو أقدم الأفكار الإنسانية لا ينافسه في قدمه سوى الفكر الديني الذي هو قديم قدم الإنسان ذاته ومن رحم الفكرين خرج التاريخ.

إن التاريخ هو رحلة الإنسان المستمرة مع الزمن عبر محطات ومشاهد متلاحقة تصنع من الأحداث نافذة على الأخلاق وموقف الإنسان منها قرباً وبعداً وصعوداً وهبوطاً لذا فصناعة المستقبل تبدأ من استقراء التاريخ وإعادة بناء الإنسان تبعا لدروسه وأحكامه.

د. محمد فتحي عبد العال

****

الراوي والوالي

مقدمة

علاقة شغلت كل الأزمنة فلابد لكل عصر من راوي يجمع الروايات التاريخية وشهادات الشهود في كتاب وتتباين قيمة ما يكتبه الراوي قرباً وبعداً وحباً وبغضاً بحسب علاقته بالحاكم. إن الراوي أو المؤرخ بلغة عصرنا هو ترجمان عصره وضميره النابض إن أراد صدقا وهو المجمل والمزين لكل ماهو قبيح إن أراد نفاقاً.

وحتى نضع تعريفا للمؤرخ الحقيقي فهو ليس كسائر البشر إنه شخص تجاوز حدود زمانه إلى أزمنة مضت يسبر أغوارها برؤية وصبر وبصيرة نافذة لذا فالتأريخ موهبة واستعداد قبل أن يكون مجرد جمع للحوادث ونقلا للأخبار.

وعن ما ينبغي أن يكون عليه المؤرخ من شروط يقول ابن خلدون في مقدمته: (فالنفسُ إنْ كانت على حالةٍ من الاعتدال في قَبول الأخبار، أعطتْها حقَّها من التمحيص والنظر؛ حتَّى تتبيَّنَ صِدْقَها من كذبها، وأمَّا إذا

خامرها تشيُّعٌ لرأيٍّ أو نِحْلة، قبِلتْ ما يوافِقُها من الأخبار لأوَّلِ وهْلَةٍ، وكان ذلك الميل والتشيُّع غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبولِ الكذبِ ونقلِه.وما دام التشيُّع للآراء والمذاهب يفعل بالمؤرِّخ هذا، فيجب عليه التخلُّص والتجرُّد منه، ولا يجعل للهوى سُلطانًا عليه، فيتَّصف بالحَيْدة والموضوعيَّة والتجرُّد، ويكون الحقُّ رائدًا له أينما كان).

الباشا واليا على مصر

بعد عودة الهدوء إلى مصر المحروسة عقب أحداث جسام دارت رحاها على هذه الأرض الطاهرة من جلاء الحملة الفرنسية وعودة العثمانيين لمصر مرورا بأحداث ألقت بظلالها على المصريين بداية من هروب خسرو باشا ونهاية بعزل خورشيد ولاة العثمانيين على مصر بعد تحريرها... ثم استقر الأمر لمحمد علي باشا ليكون حاكما على مصر في أول استفتاء شعبي مثله زعماء الحركة الوطنية من علماء ومشايخ الأزهر لكن سرعان ما انقلب محمد علي باشا على العلماء وراح يؤجج الصراع بين الزعماء الكبار منهم حتى يحطم بعضهم بعضا فيصبح الخلاص منهم ومن شعبيتهم مسألة سهلة المنال وهو ما تحقق بالفعل.

الحقيقة أن الخلافات بين العلماء أظهرت خبيئة نفوسهم وما يضمرونه تجاه بعضهم بعضا وهو السبب الرئيسي في كونهم لم ينتخبوا من بينهم من يمسك زمام الأمور في مصر واستعانوا بجندي ألباني ليحكم مصر بمشورتهم فأضاعوا فرصة حقيقية لأول حكم شعبي في تاريخ مصر.

اتبع الباشا في التخلص من الصف الأول من العلماء أساليب الوقيعة و النفي كما حدث مع الشيخ عمر مكرم و تحديد الإقامة كما حدث مع

الشيخ الشرقاوي ومما زاد من شدة النازلة و وقع الخطب على مؤيدي هؤلاء المشايخ من العامة أن محمد علي قرب مستشارين أجانب جلهم من الأقباط للأشراف على مشروعاته التحديثية في مصر في الطب والصناعة والزراعة.

سار نظام الباشا على نفس نهج سابقيه فبناء الإنسان المصري وخلق قيم المجتمع كانتا خارج دائرة اهتمامه تماما وهو ما يبرز جليا في حال الفلاح المصري الذي كان يزرع أرض لا يملكها وثمار أرضه يدفع بها لمخازن الباشا الذي يحدد السعر بنفسه وليس للفلاح سوى السخرة والضرائب.

اضطر محمد علي مرغما أن يستعين بالمصريين في دولته ليكونوا نواة لجيشه بعد أن اختبر العنصر المملوكي والسوداني ويحسب لمحمد علي إرسال البعثات التعليمية إلى فرنسا وإنجلترا والنمسا وإيطاليا في سابقة الأولى من نوعها ولم يقدم عليها حتى الباب العالي طوال عهده و كانت ترفع التقارير للوالي بشأن ما حققه طلبة هذه البعثات من تقدم وتحصيل دراسي والويل لمن يخفق.

الجبرتى ممثل المعارضة

لقد عبر الجبرتي عن حركة المعارضة الأهلية لنظام الباشا الجديد فكان محقا في بعضها وجانبه الصواب في البعض الآخر.
وقد سطر الجبرتي لهذه المعارضة شطرا من كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) والذي بدأه من تاريخ الفتح العثماني لمصر بقيادة سليم الأول وانتهى فيه إلى منتصف حكم محمد علي باشا وأخذ شكل يوميات وهو تكملة لمساري تاريخ ابن إياس وتاريخ المقريزي.
تعدت فترة حكم محمد علي باشا الأربعين عاماً وهي فترة كبيرة لحاكم يدير بلدا بحجم مصر بشكل منفرد لكنه وخلال هذه الفترة أحدث تغييرا كبيراً في تركيبة الدولة المصرية فقضي على المماليك في مذبحة شهيرة بالقلعة ولم يخل عصره من مغامرات عسكرية فدخل في حروب مع الباب العالي وضده وحقق انتصارات وانكسارات لذا فمن الطبيعي أن ينقسم الناس حوله بين مؤيد ومعارض والمثير أن نجد الحالتين لدى الجبرتي فهو يشيد بمحمد علي باشا بمواضع من كتابه وينتقده في مواضع أخرى فيصف قيام محمد علي باشا بتعمير الإسكندرية بأنه «من محاسن الأفعال التي عجز السابقون عن القيام بها»،كما أن الجبرتي لم يخف إعجابه، بقيام الباشا

بتعمير منطقة الوادي بشرق بلبيس وتحويلها من أرض صحراوية إلى أراض زراعية فيقول :

(وقد تعمر هذا الوادي بالسواقي والأشجار والسكان من جميع الأجناس وأنشأ دنيا جديدة متسعة لم يكن لها وجود من قبل).

كما أشار إلى تشجيع محمد علي للنبهاء من أبناء مصر فذكر أن شخصا يدعى حسين شلبي عجوة ابتكر آلة لضرب الأرز وتبييضه تعمل بطريقة سهلة وموفرة للجهد وعمل لها مثالاً من صفيح ثم قدم اختراعه لمحمد علي فأنعم عليه بالأموال وأمره أن يذهب إلى دمياط ليقيم مصنعاً تستخدم فيه هذه الآلة.

الطريف أن هذه الحكاية كانت البداية لأول نهضة تعليمية في مصر فبحسب الجبرتي لما رأي الباشا من حسين هذه النكتة قال أن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعرفة فأمر ببناء مدرسة بحوش السرايا وجمع فيها جملة من أولاد البلد ومماليكه وجعل معلمهم حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي يعلمهم قواعد الحساب والهندسة والمقادير وكانت هذه المدرسة هي مدرسة المهندسخانة ومن بعدها أنشأ مدرسة للطب أشرف عليها الفرنسي كلوت بك ومدرسة للصيدلة وتوالت النهضة التعليمية بعد ذلك.

إذن ما السبب في عدم رضا الجبرتي عن محمد علي باشا ؟

في عبارات بسيطة أجمل الجبرتي رأيه في محمد علي وأسباب خلافه معه فيقول : «له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه». فقضية الخلاف واضحة هي غياب العدالة في الحكم

وبسبب هذه القضية نجد الجبرتي ينتقد محمد علي ورجاله في مواضع شتى من كتابه:

فهو يشير إلى قيام جنود محمد علي بالاستيلاء على مواشي الفلاحين وأغنامهم وبخطف السمن والجبن والتبن والبيض منهم بحجة سفرهم إلى الحجاز مما خلق أزمة بين الأهالي وهي قلة اللحم والسمن والجبن ويوصف الجبرتي داء محمد علي بأن من طبعه الحسد والشر والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم.

كما يرصد الجبرتي ظلم وجور إبراهيم باشا بن محمد علي لأهل الصعيد وكان نعت الجبرتي لإبراهيم باشا بالشاب الجاهل عمره دون العشرين ولم ير غير ما هو فيه ولم يؤدبه مؤدب ولا عرف شريعة ولا مأمورات ولا منهيات !

فكان يفرض الضرائب الباهظة على أهل الصعيد ومن يعجز عن الدفع كانت تجرى عليهم أعمال الضرب والتعليق والكي بالنار والتحريق في مشاهد استدعت من ذاكرة الجبرتي فعل التتار عندما جالوا بالأقطار.

وحينما رفع الأمر لمحمد علي بشأن ظلم ابنه اعتذر بأنه مشغول البال ومهتم بالسفر وأنه أناط أمر الجهة القبلية وأحكامها لابنه إبراهيم باشا!!.

من الواضح في كتابات الجبرتي أنه لم يتجن على محمد علي فيما يخص مسألة العدالة

لكن هل الجبرتي كان منصفا مع الوالي في حكمه على أمور أخرى؟

الإجابة لا.

فحينما أطل الطاعون بوجه الأسود على ربوع مصر عام **1812**حاصداً الأرواح فاتخذ الباشا إجراءات صارمة للحجر الصحي في عدة مدن بمصر وكانت كلمة (كرانتينا) تطلق على الحجر وهي مأخوذة من كلمة أربعين يوما الإيطالية نسبة لمدة الحجر في البندقية حينما انتشر الوباء بها عام **1348** أما أماكن العزل فكانت تسمى (لازاريت) نسبة للقديس عازار حامي المصابين بالجزام.

لم يكن الأمر بالمفهوم لدى المشايخ مثل عبد الرحمن الجبرتي فأخذ يسخر من كل هذه الإجراءات ولم تكن سخريته نابعة من عدم محبته للباشا بل لأسباب تتعلق بقناعاته الدينية فيقول «هم يعتقدون صحة الكورنتيله وأنها تمنع الطاعون» واعتبر بناء «الكورنتيله» من صور السفه في الإنفاق والتبذير. ويهاجم القاضي الذى وافق الباشا على بناء «الكورنتيله» أو الحجر الصحي قائلا: «قاضي الشريعة الذى هو قاضي العسكر يحقق قولهم ويمشى على مذهبهم» ويهاجم الباشا لحرصه على الدنيا قائلا «ولرغبة الباشا في الحياة الدنيا وكذلك أهل دائرته وخوفهم من الموت يصدقون قولهم» وراح يهاجم سائر الإجراءات الاحترازية في ذلك الوقت ومنها «الأمر بالكنس والرش والتنظيف في كل وقت » واعتبر الجبرتي تبخير البيوت والملابس وتنظيف الشوارع تدخل في باب «إزعاج الناس» وأنها تعبر عن حالة من «التطير والتشاؤم ».

بالطبع لا نحمل الجبرتي هذا الفهم فهو مرآة لعصره وفهم رجالاته المحدود. والحقيقة إن من يتحمل المسؤولية هو الباب العالي الذي عاشت البلدان العربية في كنفه ردحا من الزمن ولم تنهض ولم يتعلم أهلها بل كان الجهل يعم الأقطار العربية في هذا العهد المظلم المسمى الخلافة العثمانية.

المثير أن العامة نستطيع أن نلتمس لهم العذر من طريق آخر غير المعتقدات الدينية فكلوت بك مؤسس مدرسة الطب الحديث كان غير متفق ونظرية العدوى فيقول في كتابه (لمحة عن مصر): (وليس الطاعون من الأمراض المعدية الوبيئة وسواد الأطباء الذين فحصوه في السنوات الأخيرة ودرسوه درسا دقيقا يشاطروننا هذا الرأي) فإن كان هذا رأي رأس الطب في مصر فما بال العامة البسطاء؟! . ولكن كلوت بك نزل على رغبة محمد علي باشا.

.....

انتقام الباشا

استمر الجبرتي في كتابة يومياته بكل همة حتى ألمت به فاجعة لم تكن بحسبانه فقد قتل ابنه (خليل) غيلة.

بالطبع السبب واضح فلم تكن معارضته لمحمد علي لتمر دون عقاب وقيل أن غضب محمد علي قد اشتد عليه حينما رفض كتابة مدح له..

نالت هذه الفاجعة الإنسانية من نفس الجبرتي ففقد بصره من فرط ما بكى ولده وأصبح لا يقرأ ولا يكتب حتى توفي بعدها بثلاث سنوات.

وهكذا انتهى الصراع بين الراوي والوالي بشكل درامي فأصبح تاريخا ومضربا للمثل في كل العصور

مذكرات راهب مسلم

قديما كتب جان جاك روسو في مقدمة سيرته الذاتية وعنوانها «اعترافات جان-جاك روسو الحاوية تفاصيل أحداث حياته وأحاسيسه الدفينة في جميع المواقف التي واجهته»: (أنا أفعل شيئا لم يفعله شخص قبلي ولن يقدر شخص بعدي على تقليده) ومن العنوان والمقدمة يبدو جليا أن الرجل سار في دروب تجريد الذات والصدق مع النفس والشجاعة في إعادة تقييم نفسه والوقوف على ما كان صائبا وما كان خاطئا.

نادراً ما نجد لتحدي روسو صدى في جملة ما يصدر من مذكرات لشخصيات سياسية أو اجتماعية بارزة فهم دائما في موقع الدفاع عن أنفسهم وإحاطتها بهالات البطولة والصواب الدائم والمثالية الكاملة.

لذلك يتبادر السؤال هل يمكن اعتبار المذكرات السياسية من مصادر كتابة التاريخ؟

بالنظر إلى الصبغة الشخصية للمذكرات وما يحيط بها من انحيازية وتبرير الأخطاء وتقمص الأدوار وتعظيم الذات أي ما يمكن أن نسميه غياب الوازع الأخلاقي لذا فينبغي توخي الحذر عند الاستعانة بها.

إضافة إلى أن المذكرات عادة ما تكتب بعد سنوات من حدوثها مما يوقع الكاتب عن غير قصد منه في كثير من الخطأ والإلتباس مما يجعل المذكرات ليست المصدر الأساسي لضم أي قصة أو حدث لكتب التاريخ.

بطل فارس بلا جواد

في عام **2002** قدم الفنان المصري محمد صبحي مسلسل (فارس بلا جواد) والذي أحدث ضجة كبيرة بالأوساط العربية والدولية وقتها لسببين لاتهامه بمعاداة السامية حيث تحدث المسلسل عن بروتوكولات حكماء صهيون ومن ناحية أخرى لأنه أحيا سيرة الأديب المحتال (حافظ نجيب) ولكن في ثوب وطني ونضالي بعيد كل البعد عن حقيقة شخصية حافظ نجيب وما سطره بنفسه في اعترافاته على صحفه أو في مذكراته التي نشرت بعد وفاته.

فمن هو حافظ نجيب الحقيقي؟

هو أديب ومسرحي مصري بدأ حياته في قصر تركي فوالده هو محمد نجيب الضابط المصري بحرس الخديوي إسماعيل وأمه ملك هانم ابنة أحد الباشاوات الأتراك ومع غضب زوجة الباشا على والد حافظ لسوء سلوكه وطرده من القصر تحولت حياة والدة حافظ و كان حافظ لازال جنينا في

بطنها إلى جحيم حيث طالبتها الأم بإجهاض الجنين فتشبثت به ولم تلبث أن ماتت عقب ولادته فشعرت الأم بتأنيب الضمير بعد وفاة ابنتها فاحتضنت الطفل وتعهدته بالرعاية ولكن الأمور تسير في اتجاه اعتبره حافظ المأساة الكبرى التي علق عليها كل خطايا حياته وذلك حينما انتقل إلى حضانة والده وأصبح في بيت جده بطهطا وصب عليهما جام غضبه والسبب كان الفقر المدقع الذي غمره بسببهما بعد أن كان في رغد العيش مع جدته أم والدته التركية...

وأثناء التحاق حافظ بالمدرسة الحربية تعرف بالأميرة الروسية فيزنسكي زوجة أحد القناصل والتي كانت تكبره بسنوات عديدة ونشأت بينهما علاقة آثمة بعد أن خدرته الأميرة ليجد نفسه في فراشها!! على أثر ذلك أرسلته الأميرة ليلتحق بالجيش التركي بالأستانة ثم لإتمام دراسته في كلية سان سير بفرنسا وهناك جندته فرنسا كجاسوس على الألمان وتلقى تدريبا عاليا وتقمص دور خادم أخرس لكن الألمان كشفوا أمره وقبضوا عليه ولكن الفرنسيون نجحوا في تهريبه إلى مصر..

دب الخلاف بين حافظ والأميرة الروسية نتيجة لعلاقاته النسائية المتعددة فوجد نفسه في سلسلة من القضايا الملفقة ومطاردا من البوليس ووصل

الأمر بالأميرة إلى محاولة اغتياله... وهنا نجد أنفسنا أمام مساحة كبيرة من اللا منطق في هذه المذكرات فقد حمل حافظ نجيب كل قضايا النصب والاحتيال التي اتهم فيها وحكم عليه بسببها للأميرة الروسية التي ربما كانت من نسيج خياله الخصب والحقيقة أن المتتبع لما كتبه حافظ نجيب بشكل قصص أو اعترافات في مجلتيه الحاوي والعلمين أو بعد ذلك في مذكراته يجد القصص ذاتها ولكن بأسماء مختلفة وتفاصيل بعيدة عن التصديق و متناقضة أحيانا ففزنسكي مثلا هي زهرة هانم في قصة نشرها عام **1925**.

هذا بالإضافة لكم هائل من المغامرات مع سيدات من جنسيات شتى فرنسية واسبانية وروسية ويهودية والحقيقة أن من يلقى نظرة عابرة على صورة حافظ نجيب في شبابه سيصاب بالدهشة فملامحه لم تكن ترتقي للحد الأدنى من الوسامة التي توقع كل هذه النساء في غرامه من الوهلة الأولى فيبذلون كل الأموال من أجله!!!

ليس هذا ما يعنينا في هذه المذكرات والتي وصفها البعض بأنها واحدة من أغرب مذكرات القرن الماضي ولكن ما يهمنا هو إقدام حافظ نجيب على الاختباء داخل الدير وانتحال شخصية راهب داخله وهو الأمر المحير

والمدهش وقد علل ذلك حافظ نجيب بأنها فرصة ليصبح مطران الحبشة ويحرر السودان ومصر بحسب سر خطير جمعه بزعماء الحركة الوطنية وقتها!! وأحدهما كان على فراش مرضه الأخير وسنناقش ذلك فيما بعد بشكل تفصيلي...

وفي سياق آخر نجده يهذي بعبارات غير متزنه حول الأسباب فيقول حافظ: (أنا رجل بدون عقيدة وبدون دين، لم تؤثِّر فيَّ الوراثة؛ لأنني لم أنشأ نشأة مُنظمة، في حياة عائلية تُكوِّن أبناءها بالتربية، وتُكوِّن سلوكهم بتأثير العادات والتقاليد. ولم تُعَلِّمْني المدرسة تعليمًا دينيًّا يُثَبِّت فيَّ عقيدة ويُكَوِّن لي مبدأ ... واضطراب حياتي وجميع ظروفي على ظهر الأرض لم تسنح فيها فرصة تحدوني إلى الاطلاع على كتاب ديني... اليهودي والمسيحي والمسلم يعبدون الإله الخالق وما دمت عاجزًا عن الجزم بأي أنواع العبادة هي الأدنى للحقيقة فلماذا لا أجعل هذا العجز سبباً منطقياً أستند عليه في عبادة الله الخالق وحده الشائع في عقائد اليهود والمسيحيين معا) !!

أما جورج طنوس صاحب كتاب : (نابغة المحتالين أو حافظ نجيب) والذي صدر في حياة نجيب نفسه فيذهب إلى أن دخول حافظ الدير كان بسبب احتياله على راقصة تعمل في الملاهي العامة!!

دخل حافظ نجيب الدير وتسمى باسم غبريال إبراهيم ثم بالراهب فلتاؤوس وبعد وقت قصير من التحاقه بالدير فوجئ بموت الزعيم مصطفي كامل فرثاه بقصيدتين رآها رئيس الدير وأعجب بها وسارع بنشرها بإحدى الصحف مما أحدث ضجة وقتها حيث فسرها البعض بخروج عن تقاليد الرهبنة من ضرورة اعتزال العالم فاستدعاه البابا كيرلس الخامس وخاطبه بالمسيو متشككا في إيمانه. كما تحدث نجيب عن استعانة محمد فريد به لتلطيف تداعيات رسالة للشيخ عبد العزيز جاويش بعنوان (الإسلام غريب في بلاده) وما بها من هجوم على الأقباط وتأجيج للمشاعر الطائفية. كما يتحدث عن غضب محمد فريد عليه بعد تركه للدير وطرده له من منزله قائلا:

(لقد ذهبت إلى الدير لتختفي فيه وتعتزل العالم وقتا طويلا لينساك الناس ولتصل من الدير إلى الهدف الذي تهدف إليه، فمن الحماقة التي لا تغتفر ما فعلت لأنه أحدث ضجة تمنعك من البقاء في الدير)

سنتوقف عند المحطة الوطنية المزعومة لنحدد مدى دقة هذه المذكرات من الناحية التاريخية؟

على الطريقة التي اعتادها نجيب في تقديم رواياته البوليسية عبر اصطناع التشويق وجذب الانتباه فقد كتب ثلاثة جمل أثاروا فضول الكثير من الكتاب والمؤرخين فعندما حسم أمره بالذهاب إلى الدير قرر أن يعرض الأمر على الزعماء المشتغلين بالسياسة من منشئ الحركة الوطنية فوافقوه على رأيه وقال أحدهم : يجوز أن يكون الدير وسيلة لذهابك في منصب مطران الحبشة وذلك البلد لا يزال مستقلا ومنصب المطران هناك منصب عظيم جداً واحترام الاحباش للجالس على كرسي المطرانية أعظم من اجلالهم للجالس على العرش وقال الثاني وهو على فراش مرضه الأخير: وفي مقدور المطران المثقف ثقافة عالية أن ينشئ هناك جيشا يعلم ضباطه في النمسا أو ألمانيا فيصير في مقدوره اغتصاب السودان.. وانقاذ مصر من المحتلين؟

وقال الأول: هذا سر خطير فاحتفظ به لنفسك ولا تيسر لأي صديق معرفته..

ولم يصرح حافظ نجيب بأسماء الشخصين تاركا لشهية الباحثين مهمة التخمين فاستقرت الغالبية منهم أنه يقصد بالزعيم الذي على فراش الموت

الزعيم المصري مصطفى كامل أما الآخر فهو الزعيم محمد فريد والذي صرح باسمه في أكثر من موضع ..

نظرة عامة للعلاقات المصرية الإثيوبية في هذه الحقبة وما سبقها نستطيع أن نخلص منها إلى سذاجة السر الذي احتفظ به نجيب ووهن هذا التصور الذي لا يمكن أن يصدر من زعيمين على هذا القدر من المعرفة والخبرة الصحفية و السياسية.

بحسب كتاب المسألة الحبشية للمحامي والصحفي المصري عبد الله حسين الصادر عام **1935** فإن أقدم مواجهة بين الجيش المصري بقيادة الملك المصري (تفنخت) بالوجه البحري والجيش الإثيوبي بقيادة الملك الإثيوبي (بيعنجي) عام **720** قبل الميلاد وذلك في أعقاب اجتياح الأول لاملاك الثاني في بلاد الصعيد والتي كانت تدين لمملكة إثيوبيا في ذلك الوقت ودارت معركة حربية هائلة بالنيل كانت الغلبة فيها للجانب الإثيوبي مما زاد من مطامع ملك إثيوبيا باخضاع القطر المصري كله لمملكته فدخل منف عنوة بعد هزيمة كبيرة للجانب المصري ودخل بيعنخي معبد بتاح وقدم له القرابين وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في مسارعة أمراء الوجه البحري لتقديم فروض الطاعة والولاء لملكهم الجديد ثم تقدم إلى عين

شمس فأرسل إليه تفنخت ملك مصر يطلب منه العفو قائلا : (اكتم غيظك فإني وجل من رؤيتك لعدم مقاومتي نار حربك وامتلأ قلبي بفزعك فأسألك العفو عني) واقسم أن يدخل في طاعته ويعترف بسلطانه فعفا عنه وبعد أن لبث الملك الإثيوبي زمنا بمصر حن إلى وطنه بمدينة نبتة فعاد إليها و سلم الحكم لتفنخت المصري من جديد والذي نجح في الاستقلال بالوجه البحري مرة أخرى وبوفاته خلفه ابنه (بوكوريس) مؤسس العائلة الرابعة والعشرين.

عادت إثيوبيا لغزو مصر مرة أخرى بقيادة الملك (شاباكا) أخي بيعنخي وزوج ابنته فاستعاد حكم مصر من جديد وأسر ملكها بوكوريس ودفنه حيا وأسس للأسرة الخامسة والعشرين ولكن سرعان ما انهزم شاباكا أمام الآشوريين...

وفي العصر الحديث وتحديدا في عهد الخديوي إسماعيل عادت الحرب بين الطرفين من جديد بدأ الصراع برغبة إمبراطور الحبشة يوحنا في بسط نفوذه على البحر الأحمر عبر إنشاء ميناء خاص ببلاده عليه فرأي إسماعيل في ذلك تهديدا لنفوذه فأضمر في نفسه احتلال الحبشة فأرسل حملتين واحدة تلو الأخرى الأولى بقيادة أرندروب بك على جونديت والثانية بقيادة

منزنجر باشا ومني إسماعيل بهزيمة ساحقة في الحملتين وأبيد أكثر القوات المصرية المرسلة كما قتل قائدا الحملتين.. قرر إسماعيل الثأر لكرامته للمرة الثالثة فحرك جيشا جرارا بقيادة السردار راتب باشا والجنرال الأمريكي لورنج باشا والامير حسن ابن الخديوي لتتكرر المأساة ويهزم الجيش المصري في بلدة قورع وانتهى الأمر بالصلح بين البلدين ولكن نالت الهزيمة من هيبة مصر بشكل كبير.

الغريب أنه في عام **1902** وهو تاريخ ليس ببعيد عن حياة الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد تم توقيع معاهدة بشأن الحدود المصرية مع الحبشة لوضع حد لمطامع الحبشة في السيطرة على النيل وتعهد فيها ملك الحبشة بعدم تشييد أو السماح بتشييد أي عمل على النيل الأزرق وبحيرة تسانا أو نهر السوباط من شأنه عرقلة جريان المياه إلى النيل ألا بموافقة بريطانيا وحكومة مصر بالسودان.

تاريخ كهذا من التوجس والصراع والحروب والمطامع رسخ في وجدان الشعبين عدم الأمان وعدم التعاون وبالتالي فمن غير المعقول أن يذهب أي عاقل بفكره إلى إنشاء جيش أثيوبي لاستعمار السودان ومصر بدلاً من الإنجليز!!!

كما أن الاعتماد على الكنيسة الإثيوبية كطرف لاعب فمتى كانت لها هذه القوة والتأثير في مجريات الأمور ؟!

نخلص من هذا إلى أن ما تحويه هذه المذكرات من شذرات لموقف بطولي هو محض خيال من كاتبها وهنا مكمن الخطورة فالوازع الأخلاقي أمر هام حينما نكتب التاريخ فالتاريخ أمانة ونقله مهمة عظيمة لذا فحينما نبني على مذكرات تاريخا كاملا ونحوله إلى دراما يراها الملايين حول العالم ونقدم لهم شخصا ليس له أي ماضي وطني باعتباره بطلا شعبيا شارك في أحداث وطنه وأمته العربية فهذا تشويه وعبث بالتاريخ .

العقد المقدس

للوزير بتاح حتب كتاب في أدب الحكمة يضم تعاليمه للنهوض بالأخلاق ومنها قوله :

(إذا كنت عاقلاً فأسس لنفسك دارًا، وأحبب زوجتك حبًا جمًا، وآتها طعامها وزودها بالثياب وقدم لها العطور لينشرح صدرها ما عاشت، وإياك ومنازعتها، ولا تكن فظًا ولا غليظ القلب، فباللين تستطيع أن تتملك قلبها، واعمل دائمًا على رفاهيتها، ليدوم صفاؤك وتتصل سعادتك)

وبناء أي بيت ينبغي أن يقوم على شفافية وأسس أخلاقية واضحة والعقد دوما شريعة المتعاقدين والوفاء به أساس للسعادة والاستمرارية.

فهل يا ترى لهذه العقود الأخلاقية الخاصة وجود في تراثنا؟

الصداق القيرواني

كان الصراع على أشده بين الأمويين والعباسيين وكانت الكفة تميل لصالح العباسيين الذين بنوا دعوتهم على حقوق الموالي والعبيد والمستضعفين في مواجهة البيت الأموي الذي مارس شكلا كبيرا من العنصرية لصالح الدماء العربية...

ولكن الطريق للحكم ليس بهذه البساطة فبالتأكيد تحيطه الأهوال وتطوقه المخاطر فكانت حياة الدعاة العباسيين بين كر وفر ومنهم كان أبو جعفر المنصور والذي اتخذ مسار أخويه إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح في الدعوة للخلافة فلاحقته عيون بني أمية فاتخذ طريقه للهروب باتجاه مدينة القيروان ونزل سرا عند تاجر يمني هناك يدعى منصور بن يزيد الحميري وكان للحميري ابنة فائقة الجمال حادة الذكاء اسمها أروى وكانت علاوة على ذلك واسعة الاطلاع والتحصيل العلمي فلما وقع بصر المنصور عليها ملكت فؤاده فسارع لطلب يديها من أبيها ولكن كان لها شرطا لم يعيره المنصور انتباها وقتها فوافق على الفور وهو ألا يتزوج عليها وألا يتسرى بالجواري وفي حالة حنثه لهذا الشرط فلها أن تطلق نفسها على عادة أهل القيروان.

لم يكن المنصور يعلم ما تواريه الأقدار وأنه على بعد سنوات قليلة من ملك لا يبلى وبلاط عامر بالملذات والجواري الحسان.

عاد أبو جعفر المنصور إلى الكوفة برفقة زوجته الجديدة وكانت الدولة الأموية على أعتاب النهاية أمام جحافل قوات أبي مسلم الخرساني أحد دعاة الدولة العباسية وكان سفاكا للدماء و من الموالي الفرس المؤثرين والذي سرعان ما غدر به المنصور بعد ذلك.

كان مروان بن محمد الملقب بالحمار أخر خلفاء بني أمية قد ظفر بإبراهيم الإمام الاخ الأكبر للمنصور والسفاح وحبسه لفترة بحران ثم قتله غيلة فلبس أقاربه السواد عليه والذي أصبح فيما بعد شعار الدولة ولما استتب الأمر للعباسيين بويع بالخلافة في البداية عبد الله السفاح الأصغر سنا والسبب أن السفاح كانت أمه عربية حرة بينما أم المنصور أمة بربرية تدعى سلامة فلما مات آلت الخلافة إلى المنصور والذي بنى مدينة بغداد وقصر الخلد لتسكن فيه زوجته والتي رزق منها بولي عهده محمد المهدي والخليفة فيما بعد.

سلك أبي جعفر كافة السبل للتنصل من شرط زواجه بأروى ويقول الجاحظ في كتابه (المحاسن والأضداد) أن المنصور ظل عشر سنوات

يكتب للفقيه تلو الفقيه بالحجاز والشام حتى يحصل على فتوى أحدهم للزواج بأخرى ولكن تصدت أروى لهذه المحاولات بالمرصاد وكانت تستخدم في ذلك سلاح المال أحيانا وظل الباب موصدا أمام أبو جعفر حتى ماتت أروى تاركة له هدية مائة جارية بكر لصبره عليها طيلة حياتها كما وقفت ضيعة الرحبة التي أقطعها إياها المنصور على المولدات الإناث دون الذكور.

لقد ماتت أروى ولكنها أسست لقاعدة أثرت في محيطها والمناطق المتاخمة لها ففي بلاد شنقيط بموريتانيا لديهم قاعدة على غرار الصداق القيرواني تعرف بصداق بلاد شنقيط فلا امرأة سابقة ولا لاحقة وإلا فأمرها بيدها والحال كذلك ببعض الزيجات الأندلسية .

المسألة في ميزان الدين والمجتمع

إن مسألة تعدد الزوجات ليست وليدة الإسلام بل سابقة عليه ومارستها كافة الحضارات الإنسانية وحينما جاء الإسلام هذب هذه المسألة فلم يجعلها واجبة بل مباحة مع تقييدها بالقدرة على العدل والمقدرة على الإنفاق وتهيئة معيشة كريمة للزوجات ورغب في الاقتران بواحدة كما أفرد للمرأة ووليها حقهما الطبيعي في رفض التعدد إذا كان لا يتناسب مع وضع المرأة فرفض النبي صلى الله عليه وسلم لزواج علي ـ رضي الله عنه وزوج ابنته فاطمة من بنت أبي جهل وكانت مسلمة وقتها وقد مات أبوها الكافر لم يكن لكراهية النبي الجمع بين بنت عدو الله وبنت رسول الله، فالقرآن الكريم يعارض هذا بقوله تعالي :(ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) وإنما كان السبب هو الخوف علي مشاعر ابنته وهو ليس استثناء خاص بالسيدة فاطمة كما ذهب الفقهاء فلا يمكن إن يرتضي النبي لنساء المسلمين ما لا يرتضيه لابنته بل كان تقرير لقاعدة حق المرأة وولي امرها في تقرير مصيرها إذا أراد زوجها الزواج بأخرى وفق وضعها ورؤيتها..

الحقيقة أن الفقهاء القدامي ومن سار على دربهم لم يعيروا انتباها لهذه الصور المضيئة من حياة النبي وتركوا الكثير منها دون تأصيل فأضاعوا فرصة البناء عليها والغزل منها لفقه عصري يليق برسالة الإسلام وحضارته و ملائما للمرأه الجديدة التي تحررت من ربقة العبودية بالدخول في الإسلام وليس العكس وهذه الصناعة لهذا النسيج الفقهي لن تكون متكلفة أبداً فهي ظاهراً وباطناً جزء لا ينفصم من مبادىء الإسلام.

وصدق الإمام المجدد الشيخ محمد عبده يوم قال: (الإسلامُ محجوبٌ بالمسلمين) ومسألة التعدد تختلف من مجتمع لآخر فقد تكون حلا لمشاكل اجتماعية كالعنوسة في بعض المجتمعات وبالتالي لا ينبغي النظر إلى هذه المسألة على أنها غير أخلاقية ومضادة للحضارة الحديثة فهي مسألة تركت للاختيار والتوافق بين أطرافها وبالتالي فهي قضية عادلة اجتماعياً و أخلاقياً بلا شك وفي المقابل فإن اشتراط المرأة عدم الزواج عليها بالعقد على غرار التجارب القيروانية والأندلسية هو أمر عادل أخلاقياً واجتماعياً أيضاً .

سيدة غانا الأولى

مقدمة

بنى الصينيون القدماء سور الصين العظيم كمنظومة دفاعية متكاملة لا مثيل لها في العالم حينها لصد شعب شيونغنو أسلاف عرق الهان وهي ثاني السلالات الصينية الحاكمة وكان ظنهم أن ذلك البناء سيوفر لهم الأمن والحماية والعيش بسلام.. لكن المدهش أن هذا السور لم يستطع إيقاف أي غزو حاق بالصين فلقد تمكنت القبائل الشمالية من تخطيه وتمكن المغول من هزيمتهم على جدرانه كما وقع السور تحت سيطرة عشيرة مانشو!!!

فما السبب؟! السبب بسيط أن الصينين القدماء بنوا السور ولكن نسوا أن يبنوا الإنسان.. الإنسان الذي يحمى هذا السور فيكفي رشوة بسيطة للحارس ليفتح للعدو الباب..

لقد رسمت هذه القصة الطريق للقادمين فبناء الأمم يتحقق حينما يعلو بناء الإنسان بناء الحجر.. فهل يا ترى استوعبت بلادنا هذه الحكمة عبر تاريخها؟ لنرى..

عبد الناصر وسنوات البناء

تمضي مواكب التاريخ حاملة رموز مضيئة امتلكوا من الطموح والإرادة والإصرار ما مكنهم من صناعة تحولات عميقة الأثر في مجتمعاتهم وإعادة كتابة التاريخ.. إنهم نجحوا أحيانا واخفقوا في أحيانا أخرى ولكنهم بقوا جزءا من ذاكرة أوطانهم حينما ادركوا أن القيمة الحقيقة تنبع من بناء الإنسان ومن هؤلاء الرئيس جمال عبد الناصر الشخصية التاريخية الاستثنائية التي فرضت نفسها على مجريات الأحداث في عصرها وتركت بصماتها في العالم أجمع لما حفل به زمنه من أحداث جسام وتغييرات إقليمية ودولية خطيرة وحينما نتحدث عن عبد الناصر بهذه الصورة فنعني الفترة التي سبقت هزيمة **1967** والتي نجح فيها في تحويل مصر لقوة إقليمية داخليا وخارجيا لا يستهان بها.

النهوض بالمرأة

حينما ينشد أي زعيم أن يرتفع بالإنسان و بقيم المجتمع لابد وأن يوجه نظره للارتفاع بقيمة المرأة فالمرأة هي المربي الأول دائما داخل الأسرة التي هي نواة المجتمع لذا فالمرأة الدعامة الأولى لبناء الأسرة القوية المتماسكة مما يرتقي المجتمع في النهاية رحم الله الشاعر الكبير حافظ إبراهيم حينما قال عن المرأة

الأُمُّ مَدرَسَةٌ إِذا أَعدَدتَها.. أَعدَدتَ شَعباً طَيِّبَ الأَعراقِ
الأُمُّ رَوضٌ إِن تَعَهَّدَهُ الحَيا.. بِالرِيِّ أَورَقَ أَيَّما إيراقِ
الأُمُّ أُستاذُ الأَساتِذَةِ الأُلى.. شَغَلَت مَآثِرُهُم مَدى الآفاقِ

لقد استطاع جمال عبد الناصر أن يحدث نقلة كبيرة في النهوض بالمرأة المصرية فتوسع في التعليم النسائي بشكل كبير وانتصر لحقها في ممارسة العمل السياسي والحزبي ولأول مرة في تاريخ مصر تتولى المرأة حقيبة وزارية وهي السيدة حكمت أبو زيد أول وزيرة للشئون الاجتماعية

عام **1962** والتي أطلق عليها الرئيس الراحل لقب :قلب الثورة الرحيم. لقد أصبحت المرأة المصرية محط أنظار العالم في عصره.

نختلف أو نتفق حول عبد الناصر ولكن السنوات الأولى لحكمه تركزت حول بناء الإنسان المصري لأول مرة في التاريخ فقد كانت كل العهود السابقة عليه تعني بإنشاء المشروعات العملاقة ولا تلقى بالا لبناء الإنسان وتوفير التعليم والصحة له وتتركه يرتع في الجهل وفريسة للأمراض والأوبئة.

مع تولي عبد الناصر مقاليد الحكم في مصر كانت سياسته واضحة بشأن النهوض بالإنسان المصري وحينما عهد بوزارة الثقافة لثروت عكاشة كانت وصيته له مباشرة من أن بناء آلاف المصانع أمر يهون إلى جانب الإسهام في بناء الإنسان.

لقد جعل عبد الناصر بناء مصر الحديثة يقوم على ركيزتين تنمية الإنسان والتنمية الاقتصادية عبر المشروعات الزراعية والصناعية والمرافق ولكن كان بناء البشر قبل بناء الحجر وهنا تكون الاستفادة من عبر التاريخ فأصبح التعليم متاحا كالماء والهواء للجميع بالمجان وأصبحت المدارس بكل ربوع مصر وأرسلت البعوث العلمية إلى كل مكان وكانت مصر

حاضنة للأدب والأدباء من العالم أجمع وصارت الصحة للجميع فكانت المستشفيات والوحدات الصحية في كل مكان بمصر.

العلاقة مع أفريقيا

ولأن مصر هبة النيل كما قال هيردوت والنيل يستمد مكانه من قلب القارة الأفريقية لذا كان اهتمام عبد الناصر بأفريقيا كبيراً فحمل على عاتقه مساعدة الشعوب الأفريقية على التحرر فيقول عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة : (ليس فقط بحكم موقعنا الجغرافي في القارة ولكن بحكم تطلع شعوب القارة إلى مصر لمعاونة هذه الشعوب التي تنشد النور والحضارة في أعماق القارة).

المصاهرة مع القارة السمراء

بعد تحدي عبد الناصر للقوي الاستعمارية وتأميم شركة قناة السويس وتعرض مصر للعدوان الثلاثي عام **1956** أصبح عبد الناصر ملهما للكثير من الزعامات الأفريقية التي تنشد الاستقلال والبناء ومنهم الرئيس الغاني الراحل كوامي نكروما الذي تزعم استقلال غانا عن بريطانيا عام **1957** وتولى بعدها رئاسة الوزراء ثم انتخب أول رئيس للبلاد عام **1960** ثم أعيد انتخابه عام **1965** وهو صاحب مشروع الوحدة الأفريقية والذي تمخض عنه تأسيس منظمة الوحدة الأفريقية بأديس أبابا عام **1963.**

خطفت قلب كوامي نكروما عروس من النيل إنها فتحية رزق الفتاة المصرية ابنة حي الزيتون بالقاهرة التي لم يرق لها العمل بالتدريس فعملت بوظيفة بأحد البنوك عام **1957** ويشاء القدر أن يراها نكروما في القاهرة وكان وقتها لا يزال رئيسا للوزراء في بلاده فتقدم للزواج منها لكن والدتها رفضت خشية مغادرتها البلاد معه إلى غانا ولم تتراجع الأم عن موقفها إلا حينما أكد لها الرئيس عبد الناصر أن مصر ستنشئ سفارة بغانا وخط

طيران مباشر معها وتم الزواج بالفعل في غانا في ليلة رأس السنة لتصبح فتحية سيدة غانا الأولى.

الطريف أن هذه المصاهرة بين مصر والقارة الأفريقية لم تكن الأولى فقد سبقها محاولة أخرى في عهد عبد الناصر أيضا وكانت من جانب الإمبراطور الإثيوبي هيلاسلاسي للاقتران بجميلة توفيق اندراوس ووالدها هو زعيم وفدي بارز وكان صديق لسعد باشا زغلول وقد رأها الإمبراطور في حفل افتتاح الكاتدرائية المرقصية في العباسية لكنها رفضت هذه الزيجة لخوفها من الإقامة في إثيوبيا التي كانت دون مصر في رحابة العيش والتقدم وقتئذ.

استطاع نكروما تطوير الصناعة والتعليم في بلاده كما استطاعت فتحية أن تحظى بمحبة شعب غانا ولكن سرعان ما تبدلت الأحول حيث واجه نكروما انقلاب عسكري استولى على السلطة أثناء زيارته لفيتنام عام **1966** فلجأ إلى غينيا وقام رئيسها أحمد سيكوتوري بإعطائه منصب رئيس الجمهورية فخريا وكانت غينيا منطلقا لدعوة الشعب الغاني على التمرد على الانقلاب ولكن القدر لم يمهله حيث توفي في رومانيا عام **1972** ثم دفن في غينيا وجرى نقل جثمانه فيما بعد لموطنه غانا.

ولكن ماذا حدث لفتحية؟

فور الانقلاب اتصلت بالرئيس عبد الناصر فجرا لتستنجد به فأرسل طائرة خاصة لأكرا لتقلها وأبنائها للقاهرة واستضافها في قصر الطاهرة لمدة ثلاث شهور حتى استقرت ببيتها في المعادي وبعد هزيمة عام **1967** تبرعت بذهبها للمجهود الحربي انه الوطن حينما يحب أبناءه فيفديه أبناؤه بالغالي والنفيس.

توفيت فتحيه بمصر عام **2007** ودفنت إلى جوار قبر زوجها في غانا نزولا على إصرار الرئيس الغاني جون كوفور.

إن ثمار الأرض تُجنى كل موسم، لكن ثمار بناء الإنسان تُجنى كل لحظة .

صاحب القلب الرحيم

قديماً وضع الفيلسوف الإغريقي أبقراط، دستوراً للمقبلين على فن الطب، فعليهم أن يقدموا المساعدة للجميع، ذكورًا أو إناثًا، أحرارا أو أرقاء دون تمييز، وأن الطبيب النموذجي لا يذيع أبدا أسرار مريضه. ومن يفشيها فقد أخل بفروض مهنته فهو كمن يفشي أسرارا مقدسة.

تكريم من عدو

في عام **2013** منح مركز (ياد فاشيم) الاسرائيلي والخاص بتكريم ضحايا المحرقة اليهودية المزعومة (الهولوكوست) ميدالية (الشرفاء بين الأمم) لطبيب مصري هو محمد حلمي لكن القائمون على المركز لم يستطيعوا الوصول لعائلته. ولقد أثار هذا التكريم العديد من علامات الدهشة وقتها خاصة في الأوساط العربية والتي يجمعها بالكيان الصهيوني سنوات من العداء المستحكم فمن هو محمد حلمي ولماذا فاز بهذا الوسام كأول عربي يحوز على هذا اللقب؟ ولنبدأ الحكاية من البداية

عبقرية المكان :

ولد محمد حلمي بالخرطوم عام **1901** لأبوين مصريين في وقت كانت مصر والسودان ممتزجتان في بوتقة واحدة كوطن واحد تحت ظلال التاج الملكي المصري. لا نمتلك التفاصيل عن ظروف نشأة محمد حلمي ولكننا نستطيع أن نستشفها في ضوء الظروف التي سادت فترة نشأته وقبيل انتقاله لبرلين عام **1922.**

لقد وقعت بمصر أحداث جسام قبل مغادرة حلمي لمصر بسنوات قليلة إذ اندلعت نيران ثورة عام **1919** في أعقاب نفي الزعيم سعد زغلول ورفاقه إلى مالطة حيث جرى توقيفهم أثناء محاولتهم السفر إلى باريس لعرض مسألة استقلال مصر في مؤتمر الصلح هناك.

لقد كشف الحراك الإجتماعى إبان هذه الثورة عن عبقرية الوطن المصري الجامع لعناصره الثلاثة: المسلمون والأقباط واليهود لتقضي على أكذوبة الانقسام الطائفي والتي روج لها المستعمر الإنجليزي واتخذها ذريعة للبقاء بدعوى حماية الأقليات وذلك عقب اغتيال بطرس غالي رئيس الوزراء القبطي السابق برصاص شاب مصري مسلم هو إبراهيم الورداني عام **1910**.

لقد ظهر وعي المصريين بجلاء في رفض بقاء المستعمر والتدليل على وهن حجته وأن الوحدة الوطنية بين المصريين لا تعرف تمييزا بين المواطنين على أي أساس طائفي أو عنصري ولنستدعي من ذاكرة تاريخ هذه الثورة الفتاة اليهودية (نظلة ليفي) والتي ذهبت إلى الجامع الأزهر لتخطب في الناس وفي مشهد فريد كان الشيخ أحمد الحملاوي العالم الأزهري يسير إلى جوارها وبصحبتهما أحد القساوسة ووقف الثلاثة أمام الحاضرين وجلهم من

المسلمين فتحدثت نظلة قائلة :(إن هذه الأيام ليست أيام اضراب عن العمل بل أيام العمل كل العمل عمل النفوس والأرواح وهو رأس كل عمل مادي وأن أكبر عمل هو أن تتفق الأمة المصرية جميعها حتى تصير كرجل واحد فلا يمنع الدين الاتحاد لأن للوطن حرمة كحرمة الدين يشترك فيها أهله على اختلاف المذاهب والأديان لذلك اشترك المسيحيون والاسرائيليون مع إخوانهم المسلمين وإنها لبداية حياة جديدة في مصر والمصريين ومن الجديد فيها أن تقف فتاة إسرائيلية للخطابة في هذا المعهد الشريف وليس هذا غريبا فبنو إسرائيل والمسلمون أخوة لأب واحد هو إبراهيم ودعت في النهاية للمحبة والائتلاف).

كما نجد سيرجيوس أول رجل دين مسيحي يعتلي منبر الأزهر وظل لعدة أشهر برفقة الشيخ (محمود أبو العبر) مناديا بالكفاح ضد المحتل حتى أن سعد زغلول أطلق عليه (خطيب الثورة الأول)ومما ورد في إحدى خطبه: «أنه مصرى أولًا ومصرى ثانيًا ومصرى ثالثًا، وأن الوطن لا يعرف مسلمًا ولا قبطيًا، بل مجاهدين فقط دون تمييز بين عمامة بيضاء وعمامة سوداء»، وهو يشير إلى عمامته السوداء وحينما اعتلى منبر الأزهر خطب وقال: «كنت أسير في كلوت بك ووجدت أطفالا في الشارع يصرخون: أمنا في

المنزل وهناك جنود يعتدون عليها فصعدت للمنزل فوجدت امرأة يعتدى عليها الجنود الإنجليز، أتدرون من هم الأطفال ومن هي الأم، فقال الجمهور لا.. فقال لهم الأطفال هم فئة الموظفين والأم هي مصر، فثار الموظفون فقال لهم.. أظهروا شعوركم هذا حيال أمكم مصر».

إن الأساس الحقيقي لبناء أي دولة يكمن في الضمير الحي.. في الإنسان السوي... في المجتمع الرشيد فالضمير هو الفطرة وهومظلة الأخلاق التي تحكم أي مجتمع وترشده إلى الصواب و بناء الإنسان السوي لا يكون إلا في مجتمع رشيد كما أن المجتمع الرشيد لا يشتد بنيانه إلا حينما يقوم على أفراد أسوياء إنها معادلة البناء في أي مجتمع راقي فاستواء الإنسان كفيل أن يحقق له السلام الحقيقي داخل نفسه وخارجها فالنفس تتسامي وتعيش حالة من الاتزان والتماسك والذي يظهر أثره في تناغم هذا الإنسان السوي مع المجتمع من حوله ونبذه للتطرف والتعصب والعنصرية البغيضة وهنا يستنير المجتمع وينهض وهذا ما كشفته ثورة عام **1919** إنها عبقرية هذا الوطن وروعة هذا الزمان وفي وسط هذا الإيقاع المتجانس لابد وأن تكون النشأة صحية وسوية لأي إنسان لذلك لا نتعجب مما سيفعله محمد حلمي فيما بعد.

المحطة الثانية

سافر محمد حلمي إلى برلين لدراسة الطب ثم عمل بمعهد روبرت كوخ بعد تخرجه.

مع صعود نجم أدولف هتلر والحزب النازي ووصلهما للحكم في ألمانيا عام **1933** أصبحت ألمانيا في قبضة الديكتاتور الملهم والأوحد فسادت فكرة العرق الآري القائم على نزعة تفوق العنصر الألماني وأصبحت الدولة الألمانية جهاز عرقي يمارس الاضطهاد ضد الأقليات في العالم ولقد شرح هتلر في كتابه كفاحي بكل وضوح ذلك فيقول (إن الشعوب التي تتخلى عن الحفاظ عن نقاوة عرقها تعدل في الوقت نفسه عن وحدة روحها) .

تعرض حلمي للتمييز العنصري مع غيره من حاملي الجنسية المصرية وتم فصله من عمله وهنا يحدث التحول في حياة محمد حلمي الشاب المصري الذي عرف قيم الحرية ونبذ العنصرية في وطنه مصر فبدأ يناصب هذه القوى الجديدة العداء بشكل علني مما جعله فريسة لكثير من المصاعب فمنع من الزواج من خطيبته الألمانية كما قبض عليه مع مجموعة من المصريين عام **1939** ثم أفرج عنه لظروف صحية.

القلب الرحيم

ولأن الانظمة الفردية والاستبدادية دائما ما تودي بأوطانها إلى الهاوية فقاد هتلر وطنه و العالم إلى أتون حرب مدمرة خلفت الملايين من الضحايا وخلال هذه الحرب كان حلمي يقوم بدوره في مداواة الجميع دون النظر إلى جنس أو ديانة ليقوده القدر إلى عائلة (آنا بوروس) اليهودية- أصبح اسمها غوتمان بعد الحرب - وتطوع حلمي لحماية هذه العائلة من الأذى بكل شجاعة وذلك في أعقاب الترحيل القسري لليهود من برلين فساعد آنا على الحصول على أوراق ثبوتية للهروب كما قدم العناية الطبية والدوائية لاسرتها وأمن مخبأ لجدتها المسنة في بيت فريدا شتورمان والتي كرمتها مؤسسة ياد فاشيم هي الأخرى.

وقد سجلت آنا شهادتها بكل عرفان لجميل محمد حلمي إذ تقول :(لقد قام دكتور حلمي، وكان صديقا حميما للعائلة... بإخفائي في كوخ له في 'بوخ' من **10** مارس آذار حتى انتهاء الحرب. ومنذ سنة **1942** لم تعد أي صلة تربطني بالعالم الخارجي. وقد كان الجستابو، (الشرطة السرية النازية)، يعلم بأن الدكتور حلمي كان طبيب عائلتنا، وكان يعلم أيضا بأنه يملك

كوخا في ‘بوخ‘. وقد تمكن من تجنب جميع تحقيقاتهم معه، وفي مثل تلك الظروف كان يأتي بي إلى أصدقاء له، حيث كنت أقيم لبضعة أيام، مقدمة نفسي على أنني ابنة عمه القادمة من مدينة دريزدن. وبعد زوال الخطر، كنت أعود إلى كوخه.. لقد فعل دكتور حلمي ذلك من وازع قلب رحيم وسأبقي له شاكرة للأبد).

توفي محمد حلمي عام **1982** دون أبناء لكنه خلف ورائه أسطورة إنسانية قيمة جسدها ببراعة.

دستور الأخلاق

مقدمة

في السادس من مايو عام **604** م وفي عهد الامبراطورة سوئيكو وضع الأمير الياباني شوتوكو تايشي ولي العهد أقدم الدساتير التاريخية في بلاده والذي عرف بدستور الفقرات السبعة عشر.

كان الدستور بمثابة وثيقة دينية مستمدة من الديانة البوذية الديانة الرسمية بالبلاد والكونفوشيوسية الفلسفة الأخلاقية الصينية لذا فلا غرو أن يكون عماد الوثيقة الفضائل وغايتها الأخلاق التي تنظم العلاقة بين المسؤولين الحكوميين والشعب لضمان حسن سير الإمبراطورية وتقول المادة السابعة عشر منه : (يجب القيام بالنقاش دائما وأبدا حتى لا يكون الاستبداد برأي ذاته).ومن هنا خلقت حرية النقاش مساحات من الاتفاق ووحدة الرأي والوجهة نتج عنه تناغما شكل القاعدة الأساسية في تكوين المبادئ الأخلاقية في اليابان.

تجربة من مصر

الوزارة تقر كتابا للأخلاق

في كتابه الصادر عن الأخلاق في سبتمبر عام (**1929**)يقول الاستاذ أحمد أمين أن الغرض من كتابه أن يكون مرشداً للطلبة في حياتهم الأخلاقية، مراعيا فيه الجهة العلمية أكثر من الجهة النظرية، لأن التعمق في النظريات خط الفلاسفة، والعمل وفق ما تتطلبه الأخلاق واجب الناس جميعاً ويشير الكاتب في مقدمته القصيرة إلى أن كتابه في صياغته الجديدة جاء ليلبي برنامج وزارة المعارف الجديد في تدريس الأخلاق بالمدارس الثانوية.

يتألف الكتاب من عشرة فصول يتحدث الكاتب في الفصل الأول عن ماهية علم الاخلاق ومسائله، ويضع تعريفا لعلم الأخلاق بأنه العلم الذي يوضح معنى الخير والشر وبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً أو الغاية التي على الناس أن يقصدوها في أعمالهم . موضوع علم الأخلاق هو الأعمال التي صدرت عن عمد واختيار والمسؤولية الاخلاقية نوعان: (**1**) القانونية إذا خالف إنسان قانون بلاده

وعوقب بالقضاء (**2**) والمسؤولية الاخلاقية هي أوسع دائرة من القانون- والأخلاق سلطانها واسع ومن يتولى لها التوبة والعقوبة هو الله والضمير.

وفي الفصل الثاني يتحدث الكاتب عن الضمير ويعرفه بأنه قوة أو صوت من أعماق الصدور تحذره فعل الشر أو تمنعه فإذا أصر على عمله أحس بانقباض نفسه لعصيانه تلك القوة والندم ويقول: أن خير شيء في الإنسان ضميره، فهو الدليل الذي يهدي سبيل السلام. والضمير يحتاج إلى تربية ويضعف بالأهمال ولاختلاف الضمير عبر العصور فقد يخطئ أحيانا فهو ليس معصوما ويضرب مثلا على ذلك بالخلاف بين المسلمين والأقباط وتوسيع الخلاف عبر الخطب والمقالات في الماضي واليوم يرى هذه الدعوة من أكبر الجرائم .

ينتقل الكاتب في الفصل الثالث للحديث عن الحكم الأخلاقي وأن الرجل الخير قد يأتي بعمل شر ولكن يكون الغالب عليه عمل الخير فالحكم على العمل من ملاحظة الغرض منه أما الحكم على العامل فمن مجموع أعماله في حياته ويعدد الكاتب مقاييس الحكم الأخلاقي وأولها العرف وهو عادة الأمة لكن مع رقي الناس أصبح العرف لا يصح كمقياس لعدم معقولية بعض أوامره مثل وأد البنات في الجاهلية وإماتة الأب لأبنائه

وإحيائهم عند الرومان والرق الذي ساد العالم القديم ،والمقياس الثاني هو الرأي الشخصي ومع رقي الناس أصبح الفرد يشعر بشخصيته المستقلة عن قومه وأن له أن يزن الأعمال بعقله ويحكم عليها بالخير أو الشر وإن خالف العرف أما المقياس الثالث فهو الوجدان تلك القوة الغريزية داخل الإنسان التي تصدر حكما بالارتياح أو النفور أما المقياس الأخير فهو العقل والاستدلال فليس للإنسان قوة غريزية يدرك بها الخير والشر ولكن معيار الحكم هو التجارب أي البحث والتفكير العلمي

ثم يتطرق الكاتب لموضوع مذاهب علم الاخلاق ونظرياته في الفصل الرابع ويقسمها إلى قسمين: الأول مذهب السعادة : ويعني تحصيل اللذة وتجنب الألم فاللذة هي مقياس العمل فيقال إن هذا العمل خير لأنه ينتج من اللذة أكثر من الألم ويقال أن ذاك شر لأنه ينتج ألما أكثر من اللذة والسعادة إما سعادة شخصية أو سعادة عامة أي المنفعة ومن الخطأ الجري على مذهب السعادة الشخصية لأنه مبالغة في الاثرة فضلا عن أن الإنسان مضطر للتعاون مع أبناء جنسه فالغاية الأخيرة التي ينبغي السعي لها هي تحقيق السعادة للناس أما القسم الثاني فهو مذهب اللقانة أو البصيرة : وأن الخير والشر يقاسا بصفات ذاتية فيهما وليس على أساس اللذة والألم أو النظر

للنتائج ويعول في ذلك على القوة الغريزية الباطنة بداخل الإنسان والتي يميز بها بين الخير والشر بمجرد النظر فهناك فضائل مثل الصدق ورذائل مثل الظلم والغاية تتبع الفضيلة وإلزام النفس بها

وفي الفصل السادس يتحدث الكاتب عن علاقة الفرد بالمجتمع فإذا انفصل الإنسان عن مجتمعه أدركه الفناء ولم تكن له قيمة لأن أعمال الإنسان وأغراضه وعاداته مرتبطة بالنظر إلى المجتمع فليس الصدق خيرا ولا الكذب شرا إلا لإنسان يعيش في مجتمع ثم في الفصل السابع يتحدث عن معنى الحقوق والواجبات أسسها وحق الحياة والحرية والملك الخاص والعام، كما يتطرق في الفصل الثامن إلى معنى الواجب ويعرفه بأنه العمل الأخلاقي الذي يبعث على الإتيان به الضمير ويقسمها إلى واجبات شخصية كالنظافة والعفة وواجبات إجتماعيه كالعدل والإحسان وواجبات إلهية كالطاعة وأداء العبادات ويشير لتقسيم آخر يقسمها إلى قسمين: القسم الأول واجبات محدودة وهي الواجبات الأساسية التي يتوقف عليها بقاء المجتمع وباهمالها لا يصلح شأنه وتوضع في قانون الأمة مثل: لا تقتل ولا تسرق ويوضح بجانبها عقوبات لمنتهكها ويشترك في طلبها القانون والأخلاق والقسم الثاني واجبات غير محدودة وهي التي لا توضع في قانون الأمة وتترك

للضمير وتشمل الواجبات التي عليها رقي المجتمع ورفاهيته كالإحسان فإنه يختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة بالشخص ويتحدث عن التضحية لأداء الواجب والواجبات على الإنسان لله تعالى، ونحو نفسه، وأسرته، ووطنه، ونحو الإنسانية عامة وأن معنى الواجب والنظر إليه لا يتنافى مع الوطنية، فكما أن الفرد في الأسرة يعمل لخيره وخير أسرته كذلك الفرد بالأسرة الكبيرة يعمل لخير وطنه وخير الإنسانية.

أما الفصل التاسع فيتعرض فيه الكاتب لمفهوم المثل الأعلى وأنه ينبغي لكل إنسان أن يكون له مثل أعلى يسعى لتحقيقه ويوجه أعماله للوصول إليه وهو ما يميز الإنسان عن الحيوان فالحيوانات تعيش على نمط واحد وليست في رقي مستمر أما الإنسان فدائم الرقي وأهم عوامل في تكوين المثل : المنزل والمدرسة والدين.

وفي الفصل العاشر والأخير يتعرض الكاتب لمعنى الفضيلة وهي الخلق الطيب ويقارن بينها وبين الواجب فالفضيلة صفة نفسية أما الواجب فعمل خارجي ويكون غرس الفضائل في الأطفال منذ نعومة أظافرهم من خلال الآباء في البيوت والمدرسين في المدارس ومن خلال القدوة الصالحة وتختلف قيمة الفضائل باختلاف الأمم فالأمة المهددة بالحروب ترى

الشجاعة أهم فضيلة والأمة الآمنة ترى العدل الأهم أما الأمة الصناعية فترى الأمانة أهم فضيلة كما أن الفضيلة تختلف باختلاف العصور وأقسام الفضيلة تختلف فعند سقراط لا فضيلة سوى المعرفة وعند أفلاطون فثلاث قوى ينشأ عنها الفضيلة: القوة العاقلة وينشأ عنها الحكمة والقوة الغضبية وينشأ عنها الشجاعة والقوة الشهوية وينشأ عنها العفة واعتدال الفضائل الثلاثة ينشأ عنه العدل أما عند ارسطو فأساس الفضائل خضوع الشهوات لحكم العقل.

وفي نهاية كتابه يعتقد الكاتب أن الفضائل وامثالها لا يرقى الإنسان في اكتسابها إلا بأمرين : أولهما محاسبة النفس وسؤالها من حين لآخر حول أرتقاء الفضائل فإذا رأيت نفسك تغضب كل يوم فاجتهد أن يمر يوم لا تغضب فيه فإذا نجحت في مرور أيام لم تغضب فيها فتصدق بصدقة شكراً لله على كسب هذه الفضيلة، وانتقل إلى غيرها وهكذا. ثانيهما :الإرادة القوية المسيطرة على النفس، فالإرادة قابلة للتمرن، ومثلها كمثل من يبتدئ في ركوب دراجة فهو في أول امره يختل توازنه، ولا يستطيع أن يسيطر عليها، وبالتدريج والمرانة تطيعه الدراجة، وتصبح تحت إرادته ،

وهذا هو ما ينبغي أن تكون عليه الإرادة من القوة حتى توجه النفس إلى ما تعتقد من خير وصواب.

من هو أحمد أمين؟

هو كاتب ومفكر بارز تعلم في الأزهر ثم مدرسة القضاء الشرعي وعمل مدرساً بها وقاضياً وفي عام **1926** عين مدرساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية لمادة النقد الأدبي وتدرج فيها حتى أصبح عميداً لها على الرغم من عدم حصوله على الدكتوراه عام **1939.**

أشرف أحمد أمين على لجنة التأليف والترجمة والنشر طيلة أربعين عاماً وحتى وفاته عام **1954** والتي نقلت للقارئ العربي ذخائر الفكر الأوروبي والتراث العربي في جميع فروع المعرفة بشكل منضبط وأمين كما أسس معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ويمكن أن نعتبره من رواد التعليم المفتوح عبر الجامعة الشعبية التي أنشأها بوزارة المعارف والتي كانت تسمح بالمحاضرات للطلبة والطالبات دون التقيد بسن ولا امتحان عند الدخول وتتضمن دراسة مهنية ونظرية.

لماذا الأخلاق في هذا التوقيت؟

في عام **1928** تشكلت وزارة محمد محمود باشا الرجل الصعيدي ورئيس حزب الدستوريين الأحرار و صاحب القبضة الحديدية والتي بها عطل الدستور بالكامل لأول مرة وصادر أغلب الصحف المصرية حيث احتفظ بمنصب وزير الداخلية إضافة لمنصبه كرئيس للوزراء وعجز الوفد عن مواجهة ديكتاتوريته.

على الرغم من هذا الوجه القاتم لهذه الوزارة إلا أنها ضمت أستاذ الجيل الفيلسوف البارز ورائد الليبرالية أحمد لطفي السيد كوزير للمعارف فاضطلع بمهمة تنويرية رائدة وهي نشر الأخلاق وكان أحمد لطفي السيد قد نقل كتب ارسطو من الفرنسية للعربية ومنها كتاب الأخلاق عام **1925** لذلك لا عجب أن يكون على قمة أولويات الوزارة في عهده تدريس الأخلاق. يقول أحمد لطفي السيد : (لست ممن يتشبثون بوجوب تعليم دين بعينه أو قاعدة أخلاقية معينة. ولكني أقول بأن التعليم العام يجب أن يكون له مبدأ من المبادئ يتمشي عليه المتعلم من صغره إلى كبره. وهذا المبدأ هو مبدأ الخير والشر وما يتفرع عنه من الفروع الأخلاقية. لا شك

في أن نظريات الخير والشر كثيرة التباين. ولكن الواجب على كل أمة أن تعلم بنيها نظريتها هي في هذا الشأن. فعندنا (في مصر) إن مبدأ الخير والشر راجع إلى أصل الاعتقاد بأصول الدين، فعليه يجب أن يكون الدين من هذه الوجهة الأخلاقية هو قاعدة التعليم العام).

هذا هو ما نسميه مثلث التناغم في أي نظام تعليمي والذي يتحقق به التميز والارتقاء والسمو أضلاعه قيادة ذات فكر وخطة مثلها أحمد لطفي السيد و الضلع الثاني هو حسن الإنتقاء ووضع الشخص المناسب في مكانه المناسب وهو ما من شأنه اختيار تنفيذين ذوي فكر عال وتعليم راق مثلهم أحمد أمين والضلع الثالث هو المحتوى الكفء والمادة المنتقاة بعناية والتي مثلها كتاب الأخلاق فصناعة النشء وتربيتهم بشكل سليم مهمة جليلة لا تتحقق إلا حينما يكون الشخص المناسب في المكان المناسب. إنه التناغم حينما يترادف الفكر ويتحد الهدف فيكون الناتج هو أفرادا أسوياء يخدمون المجتمع إنه الاستثمار في الإنسان والذي خبره بعض أجدادنا في فترات معينة ونتباكي عليه اليوم حينما نرى الأخلاق وقد غابت في مجتمعاتنا في العصر الحديث.

شريعة الغاب

مقدمة

(لئلا يظلم القوي الضعيف ولأحقق العدل لليتيم قد سجلت كلماتي الغالية على صرحي لتقرير حكم البلد واتخاذ قرار البلد ومن ثم تحقيق العدل)

كانت هذه كلمات حمورابي سادس ملوك مملكة بابل القديمة وصاحب أقدم الشرائع المكتوبة في التاريخ الإنساني.

لقد كان القانون في نظر حمورابي مرادفا للعدل والإنصاف والعدل أساس الملك وقاعدة راسخة لتحطيم الإثم والشرور.

ولكن ماذا لو غاب العدل ولم يكن الناس على نفس القدر من المساواة أمام القضاء؟

وقتها نتحول من وجه الحضارة المشرق إلى غيابات المدن المنعزلة وتحديدا ولاية ساكسونيا الألمانية في القرن الخامس عشر الميلادي والتي تفردت بقانون خاص فكانت العقوبة تصدر بحق الجميع دون تفرقة نطقا ولكن

تنفيذا كان العجب العجاب فإذا صدر الحكم ضد أحد من طبقة الأغنياء كانت العقوبة تنفذ في وضح النهار على ظله!! فالقاتل من الأغنياء تقطع رقبة ظله والمسجون منهم يدخل من باب السجن ويخرج من باب النبلاء!!!

لذا فأي مجتمع يبغى التقدم والازدهار عليه الاختيار بين شريعة حمورابي وبين القانون الساكسوني!!!

ولنا مع الإحتلال الأجنبي لأوطاننا في العهود الماضية محطات ساكسونية تستحق أن تروى للعظة والاعتبار من دروس التاريخ.

حادثة دنشواي

تتلخص الحادثة التي وقعت في ريف مصر وتحديدا في عام **1906** أن جماعة من الضباط الإنجليز قصدوا قرية دنشواي لصيد الحمام ولأن الحمام يتجمع عند أجران الغلال فقد حذرهم إمام القرية من اشتعال النيران في الأجران وأخذ الحيطة لوجود نساء وأطفال عرضة للإصابة من رصاص بنادقهم لكن عائق اللغة أدى إلى عدم فهم الضباط و استمرارهم في إطلاق النار فأصاب أحدهم زوجة المؤذن ووسقطت من الجرن غارقة في دمائها... استبد الغضب بالمؤذن واشتبك مع الضابط الإنجليزي محاولا أخذ بندقيته ومستغيثا بأهل القرية فأسرع الأهالي لنجدته واحتدم الموقف بين الطرفين فلما نما إلى علم عمدة القرية ما حدث وحصار الأهالي للضباط أرسل شيخ الغفر وغفيرين لإنقاذ الضباط من الأهالي ولكن عائق اللغة كان مستحكما فوجه الضباط نيران بنادقهم باتجاه شيخ الغفر وأصابوه ظنا منهم أنه يريد بهم شرا فثار الأهالي ورشقوا الضباط الإنجليز بالطوب ففر أحدهم وهو قائد الكتيبة وطبيبها الكابتن بول وأثناء عدوه في القيظ الشديد سقط عند قرية سرسنا مغشيا عليه وحينما حاول أحد شباب القرية إسعافه بشربة ماء كان جزاءه الطعن بحراب بنادق الإنجليز والذين ظنوا أنه قتله!!

محكمة دنشواي

مات كابتن بول بضربة شمس بحسب تقرير الطبيب الشرعي ووصلت الأنباء إلى اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر فاستشاط غضبا وألف محكمة لأهالي دنشواي تكونت من بطرس غالي وزير الحقانية وعضوية أحمد فتحي زغلول رئيس محكمة القاهرة الابتدائية والشقيق الأصغر لسعد زغلول وكان مدعي النيابة هو المحامي القدير ورجل القانون الشهير في ذلك الوقت إبراهيم الهلباوي.

كان الهلباوي مشهوداً له بالوطنية فهو تلميذ جمال الدين الأفغاني لكنه في هذه القضية انحرف عن مسار الوطنية وأخلاقيات مهنته في تحقيق العدالة وقرر أن يغلب مصلحته الشخصية ويغازل الإنجليز عبر الوصول بالقرويين المساكين من أهل دنشواي إلى أقصى عقوبة ومحو أي اتهامات تتعلق بالجنود الإنجليز وفي مرافعة بليغة استغرقت ساعات على مدار يومين دافع الهلباوي عن الإنجليز بقوله: "الاحتلال الإنجليزي لمصر حرر المواطن المصري وجعله يترقى ويعرف مبادئ الواجبات الاجتماعية والحقوق المدنية!!"..

أما الضباط الإنجليز أصحاب الواقعة والجاني فيها فقال عنهم: "هؤلاء الضباط الإنجليز كانوا يصيدون الحمام في دنشواي ليس طمعاً في لحمٍ أو دجاج، ولو فعل الجيش الإنجليزي ذلك لكنت خجلاً من أن أقف الآن أدافع عنهم!!".. فيما وصف الأهالي المساكين المجني عليهم بقوله : "هؤلاء السفلة وأدنياء النفوس من أهالي دنشواي قابلوا الأخلاق الكريمة للضباط الإنجليز بالعصي والنبابيت، وأساؤوا ظن المحتلين بالمصريين بعد أن مضى على الإنجليز بيننا خمسةٌ وعشرون عاماً، ونحن معهم في إخلاص واستقامة!!".

بذل الهلباوي جهودا كبيرة في تحميل الفلاحين المسؤولية عن حريق الجرن وتبرئة الضباط الإنجليز وأنهم تعمدوا ذلك ليخفوا أدلة سبق الإصرار والترصد تجاه الضباط الإنجليز والدليل أن الفلاحين تمكنوا من إخماد نيران الجرن في ربع ساعة وهي مدة وجيزة تعني أنهم من أشعلوها!!!.

وحتى موت كابتن بول بضربة شمس وهو حادث قدري لم يسلم من سهام اتهامات الهلباوي فحمل الأهالي المسؤولية فلولا محاولتهم الإعتداء عليه لما لجأ إلى الفرار تحت أشعة الشمس اللاهبة!!

حتى شهامة بعض الأهالي في الحادث لم تشفع لهم مع جهود الهلباوي في تزييف الحقائق فأحد الضباط الإنجليز جاء في أقواله أن أحد المتهمين قد ناوله شربة ماء لكن الهلباوي قطع على المتهم فرصة للنجاة عبر تشتيت ذاكرة الضابط الإنجليزي بأن ملامح المتهم تتشابه مع ابن عمدة القرية وأن ابن العمدة هو من فعل هذا الفعل النبيل فعاد الضابط عن أقواله في حق المتهم وأقر أن من سقاه هو ابن العمدة!!!

وصل الهلباوي إلى مبتغاه وهو الوصول إلى أقصى درجات العقوبة بحق أبناء جلدته وأصدرت المحكمة أحكاما تنوعت بين الإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة وخمسة عشرة سنة والجلد خمسين جلدة. وتبرئة ساحة الجنود الإنجليز من القتل وحرق الجرن.

نالت الحادثة وما تبعها من محاكمة ظالمة من نفوس المثقفين في مصر والعالم.

فقال الشاعر المصري الكبير حافظ إبراهيم في وصف المحكمة :

لَيتَ شِعري أَتِلكَ مَحكَمَةُ التَف

تيشِ عادَت أَم عَهدُ نيرونَ عادا

كَيفَ يَحلو مِنَ القَوِيِّ التَشَفّي

مِن ضَعيفٍ أَلقى إِلَيهِ القِيادا

وقال في وصف الهلباوي:

أَيُّها المُدَّعي العُمومِيُّ مَهلاً

بَعضَ هَذا فَقَد بَلَغتَ المُرادا

قَد ضَمِنّا لَكَ القَضاءَ بِمِصرٍ

وَضَمِنّا لِنَجلِكَ الإِسعادا

أَنتَ جَلّادُنا فَلا تَنسَ أَنّا

قَد لَبِسنا عَلى يَدَيكَ الحِدادا

كما تعاطف الكاتب الايرلندي الشهير جورج برنارد شو مع الحادثة وأفرد لها في مقدمة روايته "جزيرة جون بول الأخرى" ست عشرة صفحة، قائلاً (إن الفلاحين المصريين لم يتصرفوا في الحادث غير التصرف الذي كان منتظرًا من جمهرة الفلاحين الإنجليز لو أنهم أُصِيبوا بمثل مصابهم في المال والحرمات، وإن الضباط لم يكونوا في الخدمة يوم وقوع الحادث، بل كانوا لاعبين عابثين أساؤوا اللعب وأساؤوا المعاملة).

كرومر والحادثة

كان جميع من اشترك في هذه المحاكمة الجائرة يلهث نحو الرضا السامي من اللورد كرومر الحاكم الفعلي لمصر و اللورد كرومر هو صاحب كتاب مصر الحديثة وقد ذهب فيه إلى أن الدين الإسلامي هو أهم معوق للحداثة في مصر وكان مأخذ كرومر على الشريعة الإسلامية أنها اتسمت بالقسوة البالغة في معاقبة اللصوص المسلحين الناهبين لقرى الفلاحين وأن أحكام المفتي المرتكزة على الشريعة الإسلامية نوع من العقاب المرعب كما في حد الحرابة ومع ذلك لم يستمد كرومر من حضارته الغربية أحكاما أكثر تسامحا مع أهل دنشواي حتى يرينا شكل الحداثة التي يدعو إليها بشكل عملي ... إنها قوانين ساكسونيا وإن تجملت بمسميات أخرى تبقى أحادية العدالة لا تعرف سوى الحفاظ على الأقوياء وتأمين حياتهم وتترك الفقراء للظلم و القهر والموت.

لعنة الأقدار تطارد الجلادين

عزل كرومر عن مصر عام **1907**..أما الهلباوي والذي أصبح أول نقيب للمحامين في مصر فقضى ما تبقى من عمره مطاردا بلعنة مساكين دنشواي وقرر التكفير عنها بالدفاع عن القضايا الوطنية ابتداءا من حادث مقتل بطرس غالي وحتى الدفاع عن المتهمين بمقتل السيرلي ستاك واشترك في دستور عام **1923**

أما أحمد فتحي زغلول فقد خسر تقدير المجتمع وحاول استعادة صورته عبر الترجمة للفكر الأوروبي ووضع مؤلفات قيمة في القانون.

المتنبي.... الوجه الآخر

الشعر والأخلاق

لاشك أن اختراع الديناميت قد خلف الملايين من الضحايا حول العالم مما دعا مخترعه ألفريد نوبل أن يكفر عن هذه الجريرة الغير أخلاقية بتخصيص الجزء الأكبر من ثروته في دعم الأخلاق والسلام وذلك من خلال تمويل عدة جوائز في ميادين شتى حملت اسمه منها جائزة في الأدب واشترط أن تكون في اتجاه مثالي وكانت أول جائزة لنوبل في الأدب من نصيب الشاعر الفرنسي (رينيه سولي برودوم) وجاء في حيثيات المنح أنها تقديرا لتفوقه في الشعر الذي اتسم بروح مثالية عالية وتوفيق نادر بين الضمير والعبقرية....

إنها الأخلاق التي ينبغي أن تسود الشعر وقديما قال (سيمونيدس) أحد أقدم الشعراء الغنائيين في اليونان بأن "الرسم شعر صامت، والشعر صورة ناطقة" لذا فالشاعر صاحب رسالة فهو مرآة لعصره ومجتمعه وبريشة كلماته يجسم القيم والأخلاق والمعاني المثالية الراقية وبدون ذلك لا يكون

مؤديا لرسالته على الوجه المطلوب و الصائب في التشييد الثقافي والفكري والتاريخي في المجتمع .

لكن هل يدور الشعراء جميعا في هذا الفلك من المثل والأخلاق؟ لنرى الإجابة!!

المتنبى وكافور الإخشيدى

يعد المتنبي أحد أشهر شعراء العرب وهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي أبو الطيب الكندي وكان مولده بالكوفه.

أما عن سبب تسميته بالمتنبي فلأنه أدعى النبوة في صدر حياته ثم تاب بعد سجنه ومن هنا كانت تسميته المتنبي .

كان المتنبي هو المثال المجسد للشاعر الذي يطمح الحكام في استقطابه فهو يمثل الجهاز الإعلامي الذي يجمل صورة أي حاكم مهما قبح ويواري عيوبه ولو عظمت في مقابل ما يدفع إليه من عطايا !!!

بدأ المتنبي حياته في بلاط سيف الدولة الحمداني بحلب فكان يغدق عليه العطايا في مقابل ما كان يكتبه المتنبي في حقه من مدح وثناء.

ولا يجد المتنبي حرجا في النفاق وهو يمدح سيف الدوله إلى حد مساواة السجود له بالسجود لله فيقول :

يا سيف دولةِ دين اللَه دُم أبدا *** وعش برغم الأعادي عيشةً رغدا

هل أذهَلَ الناسَ إلا خيمةٌ سقَطَت *** من المكارِمِ حتى ألقت العمدا

خرَّت لوجهكَ نحو الأرض ساجدةً *** كما يَخِرُّ لوجهِ اللَه مَن سجَدا

وفي إحدى المرات حدث خلاف كبير بين المتنبي وشاعر آخر يدعى ابن خلويه بمجلس سيف الدولة تطور إلى حد اعتداء ابن خلويه على المتنبي فشج وجهه ولم يتدخل سيف الدولة لصالح المتنبي كما توقع فغادر المتنبي حلب والشام كله غاضبا وقلبه ملئ بالحقد والغيظ وحينما نما إلى علمه أنه ذكر في غيبته بما يكره في مجلس سيف الدولة هجاه بشكل مبطن عبر توجيه اللوم لمجلسه والانتقاص منه فيقول :

يَا مَنْ نُعيتُ على بُعْدٍ بمَجْلِسِهِ*** كُلٌّ بمَا زَعَمَ النّاعونَ مُرْتَهَنُ
كمْ قد قُتِلتُ وكم قد متُّ عندَكُمُ***ثمّ انتَفَضْتُ فزالَ القَبرُ وَالكَفَنُ
قد كانَ شاهَدَ دَفني قَبلَ قولهِمِ*** جَماعَةٌ ثمّ ماتُوا قبلَ مَن دَفَنوا
مَا كلُّ ما يَتَمَنّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ*** تجرِي الرّياحُ بمَا لا تَشتَهي السّفُنُ
رَأيتُكُم لا يَصُونُ العِرْضَ جارُكمُ***وَلا يَدِرُّ على مَرْعاكُمُ اللّبَنُ

توجه المتنبي إلى مصر وكله آمال عريضة في منصب مرموق ومكافآت سخية.

كان على عرش مصر في ذلك الوقت كافور الإخشيدي وقد بدأ كافور الاخشيدي حياته عبداً حبشيا لمحمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية

ثم أصبح موضع ثقته لدرجة أن أصبح الوصي على أونوجور محمود بن محمد بن طغج ثم استبد بالأمر من دونه ومن بعده أخيه علي وقيل أن كافور دس السم لهما واحداً تلو الآخر حتى يتخلص منهما ثم نصب نفسه حاكما مطلقا لمصر دون تفويض من الخلافة العباسية ولقب نفسه بالأستاذ وأصبح يكني بأبي المسك.

يقول المتنبي في مدح كافور :

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا *** وَحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا
تَمَنَّيتَها لَمّا تَمَنَّيتَ أَن تَرى *** صَديقاً فَأَعيا أَو عَدُوّاً مُداجِيا
إِذا كُنتَ تَرضى أَن تَعيشَ بِذِلَّةٍ *** فَلا تَستَعِدَّنَّ الحُسامَ اليَمانِيا
وَلا تَستَطيلَنَّ الرِماحَ لِغارَةٍ *** وَلا تَستَجيدَنَّ العِتاقَ المَذاكِيا
فَما يَنفَعُ الأُسدَ الحَياءُ مِنَ الطَوى *** وَلا تُتَّقى حَتّى تَكونَ ضَوارِيا

كان كافور حذرا في التعامل مع المتنبي ولسان حاله يقول إن لم يكن وفيا لأستاذه الأول هل يكون بالمؤتمن لسيده الجديد وحينما طال الأمر بالمتنبي ولم يجد بغيته من كافور هجاه بأقذع الهجاء وتحول كافور بين عشية وضحاها من أسد كما وصفه في قصيدة المدح الأولى إلى كلب في

قصيدة الهجاء التي تلتها!! ومن ملك لا يهاب المنايا إلى عبد آبق سيء الخلق والخلقة فيقول :

لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معَهُ *** إن العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ!

ما كُنْتُ أحسبُني أحيا إلى زمنٍ *** يُسيءُ بي فيهِ كلُبٌ

(وفي مصادر عبد) وهُوَ محمودُ!

بالطبع لم يشف ذلك غليل شاعرنا والذي انطلق في ذم مصر أيضا لسماحها لهذا العبد أن يحكمها مع أن المماليك حكموا العالم العربي لقرنين من الزمان ولم نسمع لشاعرنا الهمام استهجانا لحكمهم يقول :

أكلما اغتالَ عبدُ السوءِ سيدَهُ *** أو خانَهُ فلهُ في مصر تمهيدُ ؟!

صارَ الخصيُّ إمامَ الآبقينَ بها *** فالحُرُّ مُستَعْبَدٌ والعبدُ معبودُ!

ومن مصر لأهلها انطلق لسان المتنبي يكيل للمصريين السباب ويوصمهم بصنوف منتقاة من الدنايا فيقول :

إني نزلْتُ بكذابينَ ضيفُهُمُ *** عن القِرَى وعن الترحالِ محدودُ

جودُ الرجالِ من الأيدي و جودُهُم *** من اللسانِ فلا كانوا ولا الجودُ

ما يقبضُ الموتُ نفسًا من نفوسِهِمُ *** إلا وفي يدِه من نتْنِها عودُ!

ثم لاذ المتنبي بالفرار من مصر في ليلة العيد متوجها إلى العراق ومنها لفارس حيث عضد الدولة البويهي فمدحه ورفعه إلى مصاف الشاهنشاه أي ملك الملوك فيقول :

وَقَد رَأَيتُ المُلوكَ قاطِبَةً*** وَسِرتُ حَتّى رَأَيتُ مَولاها

وَمَن مَناياهُمُ بِراحَتِهِ *** يَأمُرُها فيهِمِ وَيَنهاها

أَبا شُجاعٍ بِفارِسٍ عَضُدَ ال *** دَولَةِ فَنّاخُسرو شَهَنشاها

لقد مارس المتنبي النفاق السياسي في أنصع صوره فإذا رأي من ولاة الأمور بوادر استجابه راح يشدو بقصائد تمدحهم وتمجدهم وترفعهم إلى عنان السماء وتصنع من أخطائهم الفادحة إنجازات عظيمة فإن لم يستجيبوا أو اختلفوا معه نزل بهم إلى أسفل سافلين فيهجوهم بالتجريح والسب وتشويه السمعة .

لكن في النهاية لم يجن من خلف مدحياته الكبرى تلك شيئا ولم تلب طموحاته التي تعلو قدراته أبدا وخرج من الحياة خالي الوفاض وكانت نهايته من حصائد أعماله .

نهاية المتنبي

كان المتنبي قد هجا ضبة بن يزيد الأسدي بقصيدة بها فاحش القول فقال :

مَا أنصَفَ القَومُ ضبّه ***وَأمهُ الطرْطبّه

وفي إحدى رحلات المتنبي ومعه ابنه وغلامه مفلح صادفه فاتك بن أبي جهل الأسدي وهو خال ضبه فظفر بالمتنبي وقتله هو وابنه وغلامه ويقال أن المتنبي حاول الفرار لكن غلامه ذكره بأبيات من شعره تقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ***والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فعاد ليقاتل حتى قتل فكأن هذا البيت هو الذي قتل صاحبه.

مأساة ابن المقفع

تعج كتب التاريخ بالمعارضين عبر العصور وهم على كثرتهم يوجهون سهام المعارضة لكل شيء وأي شيء بموضوعية أحيانا وبدونها في أحيان أخرى، وهذه هي المعارضة السلبية التي لا تثري الواقع فهي لا تمتلك رؤية حقيقية أو تصور بديل قابل للتطبيق لذا فهي لا تبني حراكا حقيقيا نحو مستقبل مغاير ولكن قلما يقع نظرك على المعارض الإيجابي الذي يشخص الداء ويشرّح جسد السلطة العليل ويمتلك آليات و أدوات الإصلاح بما يكفل درء الداء وتصحيح المسار عبر ألوان من الرقابة المستمرة والمتابعة وتقديم أوجه الدعم والمشاركة عبر برامج ومشاريع إصلاحية قابلة للتطبيق الناجع.ومن أبرز الإيجابيين المعارضين الذين عرفهم التاريخ عبد الله بن المقفع .

عبد الله بن المقفع نشأته وصفاته

هو روزبه بن داذويه ولد في قرية جور بفارس، ثم انتقل إلى البصرة، وتعلَّم العربية، ودرس وتخرج على يد عبدالحميد الكاتب، كان مجوسيا كأبيه وعن سبب تسمية أبيه بالمقفع لاتهامه بسرقة أموال من خراج فارس وكان قد ولّاه عليها الحجاج ابن يوسف الثقفي فعاقبه الحجاج بالضرب على أصابع يديه حتى تفقعت أي تورمت واعوجت وشلت في النهاية ومنها عرف بالمقفع ...تفرد روزبه بالجمع بين الثقافة الفارسية والعربية وحينما أوشك نجم الدولة الأموية على الأفول والتي كانت شديدة العصبية للجنس العربي كان روزبه على أهبة الإستعداد للانغماس في النظام الجديد المنحاز للموالي وهو الدولة العباسية الوليدة حيث اتصل بالأمير العباسي عيسي بن علي(عم الخليفة، أبي جعفر المنصور) والي الكوفة حيث أشهر إسلامه بين يديه وسمى نفسه «أبا محمد عبد الله» وأصبح من كتبة الدواوين في ولايته.

تميز (ابن المقفع) بذكائه وحكمته فهو المحب لأصدقائه كما يظهر من كتاباته ومنها قوله:"ابذل لصديقك دمك ومالك" وحينما سُئل ابن المقفّع "من أدّبك"؟ كانت إجابته شديدة البلاغة: "إذا رأيت من غيري حسنا آتيه،

وإن رأيت قبيحا أَبَيْته". وعن حفظ الجميل يقول : (إذا أسديت جميلا إلى إنسان فحذار أن تذكره وإذا أسدي إنسان إليك جميلا فحذار أن تنساه) كما يقول: (إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوبُ فانظر أيهُما أقربُ إلى هواك فخالفه، فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى). كما عرف عنه كراهيته للنساء إلى حد وصفهن بالطعام لايأكله الإنسان إلا إذا جاع والطعام سريع الفساد!

وكان معاصروه يقولون عنه (لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع).

كتاب كليلة ودمنة ورسالة الصحابة

لعب ابن المقفع دور المعارض الناصح ولكن الحاكم في هذه الحقبة الزمنية أصبغ على نفسه حكما ثيوقراطيا مطلقا وهو أبو جعفر المنصور فقد خطب في الناس قائلًا: «أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على ماله، أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلاً، فإن شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني عليه قفلني) وبهذا صار الخليفة المتحكم في أرواح الناس وأرزاقهم فشاع الفساد في أرجاء الدولة وأصبحت الفجوة مترامية بين الفقراء من عامة الناس والأغنياء من البيت العباسي ، و للشاعر «أبو العتاهية» قصيدة ترصد الواقع بجلاء:: (من مُبلغ عني الإمام نصائحًا متوالية/ إني أرى الأسعار، أسعار الرعية غالية/ وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية/ وأرى غموم الدهر رائحة تمر وغادية/ وأرى اليتامى والأرامل في البيوت الخالية/ يشكون مجهدة بأصوات ضعاف عالية)

لم تكن ملامح هذا الفساد مستترة على ابن المقفع وقد كان يعمل بالديوان فالأموال تأتي من الأمصار إلى بغداد مقر الحكم دون أن تدون في سجلات وكان يرى أنه لا مناص من الإصلاح بالعودة إلى النظم الإدارية الفارسية،

التي استرشد بها الفاروق عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" في بناء الدولة الإسلامية، والدولة تعيش في فوضى من الأحكام فالقضاة لا يستندون في أحكامهم إلى تشريعات أو قوانين محددة فنبه على حتمية استقلال القضاء والأتفاق على آلية واحدة تسير بها الأحكام.

نقل ابن المقفع قصص كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية وقد أبدع في الاستعانة بالحيوانات في رمزيات ساحرة متضمنا كتابه إسقاطات سياسية لا تخفى على عقل حصيف فيورد ابن المقفع في مقدمة كتابة قصة ملك الهند(دبشليم) مع الفيلسوف «بيدبا»، فقد كان دبشليم ملكاً على الهند، إلا أنه حاد عن نهج آبائه وأجداده في ارساء العدل بين رعيته فاستصغر شأنهم، فطغى تجبّر ، فلما رأى بيدبا الملك علي هذا المنوال جمع تلاميذه مخاطبا إياهم: (اعلموا أني قد أطلت الفكر في الملك وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية، ونحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك إلا لنردّهم إلى فعل الخير، ولزوم العدل، ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزمنا من وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا ألم الجهال، وليس الرأي عندي السفر من الوطن، ولا يسعنا في حكمتنا إبقاء الملك على ما هو عليه، ولا يمكننا

مجاهدته إلا بألستنا، وإني قد عزمت على الدخول عليه ونصحه، وليكن ما يكون)

فدخل بيدبا على الملك مقدما إليه النصيحة فغضب الملك وأمر بقتله ثم خفف حكمه إلى السجن.ويشاء القدر أن يتعرض الملك لإحدى المسائل التي يشعر فيها بحاجته لحكمة بيديا فعفا عنه وأوكل إليه إقامة العدل مخولا إليه كافة الصلاحيات في تحقيق ذلك.وفي ذلك رسالة واضحة لأبي جعفر المنصور

كما يهمس كاتبنا في أذن المنصور في ضرورة اختيار حاشيته ورجال الدولة بمعايير من الكفاءة والقدرة لما لحاشية السوء من دور في إفساد الحاكم وتضليله ونقل الصورة على خلاف الحقيقة لتحقيق مآربهم مما يؤدي في النهاية إلى انفصام عري علاقة الحاكم برعيته فيقول دمنة في باب "الأسد والثور": (لا أظنّ الأسد إلا قد حمل عليّ بالكذب وشُبّه عليه أمري، فإنْ كان الأسد قد بلغه عنّي كذب فصدّقه عليّ وسمعه فيّ، فما جرى على غيري يجري عليّ)والأسد هنا رمز للحاكم. وقد أفرد رسالة في هذا الخصوص تحت عنوان "رسالة الصحابة" قاصدا بها بطانة المنصور ، موجها إليهم نقدا مريرا

لما يرتكبوه من أعمال ذميمة ، فضلا عن انتقاده لمغالاة قادة الجند في تقديم فروض الولاء للخليفة.

أفكار ابن المقفع

لقد كان ابن المقفع سباقا في وضع لبنات نظرية العقد الاجتماعي سابقا جان جاك روسو وإن لم يتوسع في الجانب السياسي بحكم طبيعة المرحلة . كانت أفكار ابن المقفع تدور حول ضرورة احترام حقوق الإنسان وتقديرها، ومنها الحرية، وإقامة العدل و المساواة الاجتماعية داخل المجتمع دون تفرقة عنصرية على أساس الدين أو العرق ، كما نادى بتثقيف الجند وإبعاد القادة والجند عن ولاية الخراج والأمصار فالولاية وما يتبعها من لين العيش هو مفسدة للمقاتلين، وأن يتقاضوا رواتبهم في وقت محدد دراءا للعوز الذي قد يقعهم فريسة للخيانة، كما اقترح إحصاء الأراضي وتسجليها بأسماء مالكيها في دفاتر رسمية، وأن يكون المفروض عليها محددا ، على أسس قانونية محددة مما يدرأ عن المجتمع فساد عمال الخراج الذين يستولون على أموال الناس وأراضيهم دون وجه حق.

وعلى عادة المفكرين القدامي كان يرى صلاح الشعب رهنا بصلاح الحاكم فيقول في رسالة الصحابة " حسن رؤى الرعية من حسن سياسة الحاكم، وصلاحها من صلاحه"، و " الناس على دين ملوكهم". والصواب أن تربية

الشعوب وتعليمها وترسيخ القيم فيها لابد وأن تكون مسألة مستقلة عن حاكمه صلح أم لم يصلح .فالمصلح والمخلص والمربي مصطلحات عفى عليها الدهر ولم تعد لائقة بشعوب تنشد الحرية و الحياة .

أسباب مقتله

تعود مسألة مقتل ابن المقفع كما رواها «الجهشياري» في كتابه (الوزراء والكتاب) حينما دب الخلاف بين أبي جعفر المنصور و عمه «عبد الله بن علي» وقاتله على الخلافة؛ فهرب عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى بن علي بالبصرة، فخشي عليه أخواه من انتقام المنصور، مما دعاهما إلى مناشدة الخليفة حتى يؤمنهما على عمه عبد الله، وكان ابن المقفع كاتبا لدى عيسى بن علي كما أسلفنا فتشدد ابن المقفع في كتابة الأمان، وبالغ في حرصه لمعرفته بغدر المنصور فكتب : «وإن أنا نلتُ عبد الله ابن علي أو أحدًا مما أقدمه معه بصغيرٍ من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضررًا سرًا أو علانيةً، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحًا أو كناية أو بحيلة من الحيل، فأنا نفيٌّ من محمد بن علي بن عبد الله، ومولود لغير رشدة، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين». فاستشاط المنصور غضبا من كاتب الرسالة ابن المقفع ولم يكن ممن يطيقون النقد أو يتقبلون النصح، وكان يأخذ بالشبهة عملا بوصية أخيه الإمام إبراهيم صاحب الدعوة" من اتهمته فاقتله " والاتهام في ذلك العصر مرادفا للشك، وعقابه هو القتل وللإمام إبراهيم رسالة شهيرة كتبها لأبي

مسلم الخراساني بقتل أي غلام بلغ خمسة أشبار إذا شك في ولائه !!. نعود إلى مجلس المنصور فقال المنصور : "أما من أحد يكفينيه"؟ وكان والي البصرة سفيان بن معاوية يكره ابن المقفع فتولى تنفيذ عقوبة القتل بحقه.

أبشع طريقة للقتل عبر التاريخ

كان بين سفيان وابن المقفع فيما مضى ما أغضب ابن المقفع فسبّ أمه ونعتها بالمغتلمة أي المرأة التي لا تنطفىء شهوتها من الرجال ، فلما ظفر سفيان بابن المقفع قال له: أمي مغتلمة كما كنت تقول إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد!! وتفتق ذهنه عن أبشع صور القتل، قائلا لابن المقفع: والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة! فأمر بتنور أشعلت فيه النيران، وبدأ يقطع من جسد ابن المقفع عضوا عضوا وهو حي، ويلقى بها في التنور حتى يرى أطرافه وهي تقطع ثم تحرق، قبل أن يحرق بالكلية في النهاية .ولكن ابن المقفع قابل مصيره رابط الجأش فأنشد بيتين من الشعر مع آخر أنفاسه

إذا ما مات مثلي مات شخصٌ ... يموت بموته خلقٌ كثير وأنت تموت وحدك

ليس يدري ... بموتك لا الصغير ولا الكبير

جزاء الإحسان

مقدمة

يخطئ من يظن أن الإبداع ليس صناعة وأن الشخص المبدع يُولد مبدعًا ويستمر في إبداعه بالسليقة والحقيقة أن الإبداع نتاج مقومات عدة أحد أهمها إتاحة المناخ الذي يترعرع في كنفه الإبداع. هذا المناخ تكفله مجتمعات ترعى مبدعيها وتؤمن بموهبتهم وتدعمهم وتستثمر فيهم دون قيود أو إجحاف أو محاباة . بالطبع هذه المجتمعات هي التي تتصدر العالم المعاصر نهضة وابتكارا واستثمارا.

معظم الإنجازات العلمية الهائلة التي أضافت إلى رصيد البشرية كانت نتاج أفكار هؤلاء المفكرين و المبدعين الذين وجدوا الرعاية والتبني والدعم من مجتمعاتهم فأطلقوا العنان لأفكارهم ورسموا المستقبل لأوطانهم.

فما نصيبنا العربي من ذلك؟ لنرى ذلك في أحداث قصتنا عن الطبيب المصري ابن رضوان!

هو أبو الحسن علي بن رضوان المصري بن علي بن جعفر ولد بمدينة الجيزة في مصر وكان والده خبازا.

لم تمنعه نشأته الفقيرة من استكمال تعليمه فجمع بين العمل بالتنجيم ودراسة الطب حتى امتهن الطب في النهاية وصار دخله يكفيه من مهنته الجديدة.

الطريف أن ابن رضوان تعلم الطب بنفسه ولم يتعلمه على يد معلم وكان من المدافعين بشراسة عن هذه الفكرة مما جعل سهام النقد تتجه إليه خاصة من خصومه وفي مقدمتهم ابن بطلان والذي ذهب في نقده مبلغا غير لائق فنعته بدميم الخلقة أسود اللون في رسالته (دعوة الأطباء) وكان ابن رضوان يرد على ذلك بأن الطبيب الفاضل ليس بالضرورة أن يكون جميلا وقد جمعهما اللقاء في الفسطاط فقد كان ابن بطلان من بغداد ورغم ذلك استمر الخلاف والردود والمساجلات بينهما.

كانت إسهامات ابن رضوان في المجال الطبي جليلة بحق فأضفى على قسم أبقراط للأطباء طابعا إسلاميا وأضاف إليه خصال هامة منها ضرورة تحلي الطبيب بالذكاء والحرص على التعلم وحسن الخلق ونظافة المظهر وطهارة اللسان والعفة والكتمان لأسرار المرضى وعلاج الجميع على السواء الغني

والفقير والعدو والصديق وألا يصف دواءا إلا بعد روية ودراسة للحالة كما قدم شروحا مستفيضة لكتب الطبيب الإغريقي جالينوس والذي بلغ تأثره به حد أن كان يراه في المنام كلما ألمت به معضلة طبية في عمله فيساعده في حلها!.

ويعتبر ابن رضوان من الآباء المؤسسين للطب الإكلينيكي في العصور الإسلامية فكان يجري فحصا دقيقا للمريض وهيئته وبشرته ونظره وكلامه وطريقة مشيته ونبض قلبه ويتفقد أعضائه الباطنية متخللا ذلك توجيه الأسئلة للمريض لتقرير حالته.

ولما ذاع صيته ضمه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ليكون كبيرا للأطباء في بلاطه وكان معاصرا لابن الهيثم .

ومن شدة شهرته استدعاه حاكم بلوخستان لكي يعالجه من شلل جزئي أصابه.

مكانة ابن رضوان العلمية

تنوعت كتب ابن رضوان بين الطب والفلسفة ومن أشهرها كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر وكتابه شرف الطب وكتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب .

وقد ترك في كتاباته توصيات ذهبية للحفاظ على الصحة عبر ممارسة الرياضة البدنية والتغذية السليمة وتهذيب النفس عما يصدر عنها من انفعالات وقبح.

من الطريف علو شأن ابن رضوان في علوم الفلك إلى حد تسجيله الانفجار النجمي في الكرة الأرضية في **30** أبريل عام **1006** م بمنتهى الدقة من حيث الحجم والمكان وشدة الإضاءة لكوكبي الزهرة والقمر مما جعله مرجعا مهما للباحثين المعاصرين حول هذا الحدث الكوني النادر .

كما وضع مقالة في بعث نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم من التوراة والفلسفة.

مع كل هذا التميز والتفوق في المجالات المختلفة التي سار فيها طبيبنا كان القدر يخبئ له مصيرا قاسيا.

فقد وقعت بمصر في أواخر حياته ما عرف بالشدة المستنصرية لتقلب حياته وحياة المصريين رأسا على عقب.

الشدة المستنصرية

كانت الشدة المستنصرية سابقة في تاريخ المحروسة لم يشهد التاريخ المصري ما يوازيها بشاعة حيث انخفض منسوب النيل وماتت النباتات وفقد الناس أرزاقهم وارتفعت الأسعار على نحو غير مسبوق فيما فقدت الأموال قيمتها ووصلت الأزمة إلى ذروتها حيث اختفت اللحوم من الأسواق ولم يعد أمام المصريين سوى أكل القطط والكلاب ووصل سعر الكلب إلى خمس دنايير أما القط فوصل سعره لثلاثة دنايير ومع تعاظم الخطب أكل المصريين بعضهم بعضا!!!!!!حيث كانت تنصب الكمائن في أزقة مصر لأكل المارة !!!

السؤال ما السبب الذي أوصل مصر إلى هذه الحالة الخطيرة ؟

كان السبب الرئيسي هو غياب حنكة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والذي تخلى عن سياسة أجداده في إدارة الأزمات والمخاطر وذلك بتوفير مخزون استراتيجي سنوي من الغلة بقيمة مائة ألف دينار حتى يستطيع توجيه الموارد اللازمة لمواجهة أية أزمات محتملة ومواجهة احتكار التجار في وقت الطواريء ..كان صاحب نصيحة هذا التخلي عن هذه الاستراتيجية هو الوزير أبي محمد علي البازوي وهذا سبب آخر للازمة وهو غياب القيادات الوزارية التاريخية القادرة على إدارة الأزمات والسبب في ذلك ضعف

المستعصم أمام جموح أمه السيدة رصد النوبية التي استأثرت باختيار و بتغيير الوزراء بين عشية وضحاها والتلاعب في أقدار الدولة على نحو ساعد في استفحال الأزمة ...

انتشار العناصر الأجنبية في الجيش المصري آنذاك وعدم تجانس الجيش أدى إلى انقسام خطير داخل الجيش حيث تصاعدت حدة التوترات بين العناصر التركية والسودانية فيما كانت هجمات البربر على أشدها على الدلتا..كل هذه العوامل بالإضافة لانخفاض منسوب النيل كان لها الأثر الأبرز في الشدة المستنصرية..

مات من المصريين في هذه الأزمة الطاحنة أكثر من ثلثهم وخلت الشوارع من المارة ووصلت الأزمة إلى قصر المستنصر فيما فرت أمه إلى بغداد هربا من الجوع و باع المستنصر رخام قبور أجداده للحصول على الطعام بعد أن خوى قصره من كل شيء إلا سجادة تحته وقبقاب برجله !!!!ووصل الأمر أن تصدقت عليه ابنة أحد الفقهاء برغيفين يوميا ..

الطريف في هذه الأزمة هو الموقف النسائي حيث تزعمت أرملة الأمير جعفر بن هشام تظاهرة نسائية ضد المستنصر بعدما باعت عقدا ثمينا بقيمة الألف دينار من أجل شراء القليل من الدقيق لكن الناس نهبوه

منها ولم يبق منه غير ما يكفي لصنع رغيف واحد فصعدت على ربوة مرتفعة صائحة في تهكم : (يا أهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر بالله الذي أسعد الله الناس في أيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصه بألف دينار) وقد حاول المستعصم بعد توبيخ التظاهرة النسائية له على ضبط الأسعار وتوفير الدقيق إلا أن الأمر قد خرج تماما من يديه ولم يعد يمتلك أية سلطة على أي شيء بمصر وخرجت أملاك إمبراطورية أجداده المترامية عن نطاق سلطته .وقد اعتبرت جريدة التايم الأمريكية عام **1947** هذه التظاهرة أول مظاهرة نسائية في العالم .

أحوال طبيبنا فى أثناء الأزمة

عظم الغلاء على ابن رضوان فباع كتبه التي يقرأ فيها مع احتفاظه بعدد يسير من الكتب في الأدب والشرع والطب ومما زاد الطين بلة إقدام فتاة يتيمة رباها في بيته على سرقة مدخراته ثم هربت فأصيب بعدها بالجنون والغريب أن هذا المصير القاسي لاحق كتبه أيضا بعض مماته فضاع جزء كبير من مصنفاته التي شارفت على المائة في شتى ضروب المعرفة من الفلسفة والطب والفلك وما ظل منها بقى الجزء الأكبر منه مخطوطا دون تحقيق وهكذا يكون الجزاء لمبدع مستنير خذله الإحسان الذي أسداه لمجتمعه.

نهاية الشدة المستنصرية

كان الخيار الوحيد أمام المستنصر لضبط الأوضاع في البلاد هو استدعاء خادمه القوي والأرميني الأصل بدر الدين الجمالي والذي كان واليا على دمشق وعكا ليتولي الوزارة وأعطاه المستنصر صلاحيات مطلقة فأعاد بدر الدين الجمالي -والذي ينسب إليه حي الجمالية في قلب القاهرة - الأمن إلى مصر وضرب على ايدي العصاة والمجرمين ونهض بالزراعة واهتم بالتجارة فعادت مصر إلى سابق عهدها من الرخاء والاستقرار.

قائمة المراجع

1-الأخلاق لأحمد أمين

2-عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي

3-مذكرات حافظ نجيب

4-المسألة الحبشية لعبد الله حسين

5-كليلة ودمنة لابن المقفع

6-فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر

7-تأملات بين العلم والدين والحضارة لمحمد فتحي عبد العال

8-الويكبيديا العربية

****

السيرة الذاتية للمؤلف

د. محمد فتحي عبد العال

كاتب وباحث مصري

بكالوريوس صيدلة -جامعة الزقازيق**2004**

دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجي التطبيقية- جامعة الزقازيق**2006**

ماجستير في الكيمياء الحيوية- جامعة الزقازيق **2014**

دبلوم إدارة الجودة الشاملة - أكاديمية السادات للعلوم الإدارية **2015**

دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية - المعهد العالي للدراسات الإسلامية **2016**

شهادة معهد إعداد الدعاة-المركز الثقافي الإسلامي- وزارة الأوقاف **2017**

شهادة البرنامج التدريبي لأكاديمية زاد الإسلامية (أون لاين **2019**)

العديد من الكورسات والدورات التدريبية في مجال الإحصاء من أكاديمية سايلور (أون لاين **2019**) ومن كلية العلوم جامعة الزقازيق والمعلوماتية الحيوية من جامعة بكين (كورسيرا أون لاين **2019**)

العديد من الكورسات والدورات التدريبية في مجال الجودة الطبية منها شهادة تخصص سلامة المرضى من جامعة جون هوبكينز (كورسيرا أون لاين **2018**) ومن جامعة ستانفورد أون لاين **2019** وشهادة تخصص في تطوير الأداء ستة سيجما الحزام الاخضر جامعة جورجيا (كورسيرا أون لاين **2018**)

العديد من الدورات في مجال الإدارة ومنها الدورة التأسيسية لإعداد القيادات التنفيذية والإدارية والنقابية –وزارة الشباب بالتعاون مع لجنة التعليم بنادي الصيادلة ونقابة صيادلة الشرقية **2015**

دورات في تدريب المدربين من مركز سيسكو **2017** ومن مركز التنمية الثقافية والتكنولوجية بمحافظة الشرقية **2017** و **TeamSTEPPS Master Trainer 2018**

عضو باللجنة التدريبية بمجلس الاعتماد الدولي للدراسات والأبحاث الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية

الدكتوراه الفخرية من أكاديمية السلام بألمانيا **2018**

تكريم كصيدلي مثالي من نقابة صيادلة الشرقية ودرع نقابة صيادلة الشرقية **2015**

تكريم كصيدلي متميز من نقابة صيادلة الشرقية والهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية ودرع نقابة صيادلة مصر **2016**

تكريم كصيدلي مثالي من الهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية **2016**

شهادة شكر وتقدير من مجلة مبدعون ووكالة مرآة الحياة العراقية **2018** ومن المركز العراقي للأدباء والفنانين الشباب وجريدة طريق القوم بالعراق **2019** ومن صحيفة صدي المستقبل بليبيا **2019.**

شهادة تقديرية من مبادرة الباحثون العراقيون **2018**

درع الإبداع والتميز وشهادة تقدير من مجلة امارجي الأدبية العراقية **2018**

صيدلي ورئيس قسم الجودة ومدير المكتب الفني بالهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية سابقا

صيدلي بمستشفي المواساة الدمام-الجبيل الصناعية سابقا

مدير الصيدلية الداخلية ومسؤول سلامة المرضى وإدارة المخاطر ومؤشرات الأداء بمستشفي الفلاح الدولي بالرياض سابقا

مستشار طبي بشركتي**CAT** و**237 COMMUNICATIONS JLT** بمصر والسعودية والإمارات سابقا

كاتب وباحث ثقافي بالعديد من الصحف العربية والبوابات الالكترونية في مجالات الطب والعلوم والتاريخ والحضارات الإنسانية والدراسات الدينية

ومن الصحف الورقية التي أنشر بها مقسمة حسب بلدانها:

الجزائر: صحيفة صوت الأحرار الجزائرية (صفحة أسبوعية ثابتة تحت عنوان مساحة رأي)

صحيفة الحوار الجزائرية- صحيفة الجديد الجزائرية-صحيفة الجمهورية الجزائرية – صحيفة كواليس الجزائرية.

مصر: صحيفة الأهرام –صحيفة العروبة-صحيفة الزمان-صحيفة أخبار الأدب-صحيفة الرأي

العراق: صحيفة الزوراء العراقية -مجلة أمارجي الأدبية العراقية- صحيفة النهار العراقية-صحيفة البينة العراقية الجديدة-صحيفة جدار العراقية- صحيفة الكلمة الحرة العراقية -صحيفة ثقافية كل الاخبار العراقية -مجلة مبدعون العراقية -صحيفة سيروان الكردية.

السودان: صحيفة آخر لحظة السودانية.

ليبيا: صحيفة صدي المستقبل الليبية – صحيفة فسانيا الليبية.

حول العالم: صحيفة صوت بلادي بالولايات المتحدة الأمريكية (مقال طبي شهري) - صحيفة أيام كندية (مقال ثقافي شهري).

البوابات الإلكترونية مثل: الجمهورية أون لاين- موقع الدستور الإلكتروني (امان) - موقع هافينغتون بوست الأمريكي -عربي بوست-ساسة بوست -بوابتي تونس-راديو صوت بيروت الدولي -راديو صوت القلم الجزائري - فينيق-بقجة -صحيفة المثقف الإلكترونية-فوكس نيوز مصر -الراكوبة - سودانيز أون لاين -صحيفة الفكر الكردية الإلكترونية-صحيفة الحدث الإلكترونية من لندن -صحيفة الفيصل من باريس-صحيفة المنار العراقية الإلكترونية-بوابة الحضارات التابعة لمؤسسة الأهرام.

محتويات الكتاب

مرآة التاريخ

أدب التاريخ

د. محمد فتحي عبدالعال

الطبعة الأولى

1442 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com